عام القراءة 2016

@ketab_n
Follow Me
3.6.2016

جان إشنوز

راڤيل

رواية

ترجمها عن الفرنسيّة
وليد السويركي

www.kutub-pdf.net

جان إشنوز

راڤيل

رواية

ترجمها عن الفرنسيّة

وليد السويركي

مراجعة

كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

رافیل

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة – مشروع «كلمة»

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PQ2665.C5 R3812 2016

Echenoz, Jean, 1947-

[Ravel]

راڤيل : رواية / تأليف جان إشنوز ؛ ترجمة وليد السويركي ؛ مراجعة كاظم جهاد. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2016.

148 ص. ؛ 11 × 18 سم.

ترجمة كتاب : Ravel

تدمك : 978-9948-13-662-0

1- القصص الفرنسية- القرن 21.

أ- سويركي، وليد. ب- جهاد، كاظم. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:

Jean Echenoz

Ravel

© 2006 by Les Éditions de Minuit

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة – مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

ديباجة

عندما أصدر جان إشنوز Jean Echenoz روايته الأولى «توقيت غرينيتش» *Le Méridien de Greenwich* في 1979، كانت الساحة الأدبية الفرنسية تعيش تساؤلات حادّة عن «نهاية فنّ الرّواية» وعن مستقبل «الرّواية الجديدة»، ذلك التيّار الذي أطلقه رعيل من الكتّاب يقف في طليعتهم آلان روب غرييه وناتالي ساروت وكلود أوليبه. كان ممثّلو هذا التيّار قد عملوا على إبطال السّرد والحبكة وإبدالهما بالرّصد المتجرّد من كلّ انثيال عاطفيّ أو استقراء نفسانيّ أو تصعيد مأساويّ. وأمام الباب شبه المسدود الذي انتهت إليه الكتابة الروائيّة، ونشوء الحاجة إلى بديل فنيّ، انخرط إشنوز، هو وباقي روائيّي ثمانينيّات القرن العشرين وسابقيهم المباشرين من أمثال لوكليزيو

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وموديانو، انخرطوا في مغامرة العودة إلى الرواية بمعناها الأصليّ، مكتوبةً بوسائل جديدة، وسعوا إلى ردّ الاعتبار للتخييل والسّرد.

هذه العودة تجد تجسيدها في الثلاثيّة السرديّة التي نقدّمها لقراء هذه السلسلة، والتي يشكّل هذا الكتاب نصّها الأوّل. ثلاثيّة تُقرأ كتبها منفصلةً ولكلّ منها استقلاله الخاصّ. ينطلق فيها الكاتب من سيَر بعض الأعلام، ويضع لهم رواياتِ سيرة أو سيَراً روائية تختلف عن تلك التي يضعها كتّاب السّيَر بمعناها الاصطلاحيّ، والتي تظلّ قريبة من عمل المؤرّخين. فالخيال الأدبيّ يأتي هنا ليزيد إضاءة بعض التفاصيل والسِّمات والأحداث، ويعتّم على بعض آخر منها تعتيماً دالّاً، كما في رواية السيرة الذاتية أو كتابة الذّات التي مارسها باتريك موديانو وآخرون. كما تمتاز روايات إشنوز السيريّة هذه بوجازتها وكثافتها وتركيزها على عدد من الوقائع والملامح تستند في تناميها المتدرّج على نظام جوّانيّ، فيه يكمن لغز الشخصيّة موضوع الكتابة. لغز يسلّط عليه الكاتب إضاءات جانبيّة أو خفيّة ويحرص على عدم إماطة اللّثام عنه إماطة كاملة،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ليظلّ محتفظاً بفرادته وبهالة من السرّيّة الضروريّة.

وسواء في روايات السّيَر هذه أو في أعماله الأخرى، يحرص الكاتب على الرّصد الموضوعيّ، ورثه من تيّار «الرّواية الجديدة»، وينعشه بإجراءات الرّواية التقليديّة التي عمل جيل العائدين إلى السّرد على الإفادة منها وابتعاثها بشكل جديد. هذا الرصد الموضوعيّ يسمح له بالابتعاد عن التأويلات النفسانية المغالية وعن العاطفيّة الصارخة ويتيح له العمل بشيء من الدّعابة والمحاكاة الساخرة أحياناً. ثمّة حقّاً ابتسامة ملؤها تعاطف تميّز لغة السّارد الذي يتأمّل في روايات إشنوز مسارات «أبطاله» وانجرافاتهم وراء قوى المصير.

يتميّز إشنوز أيضاً بمحبّة الموسيقى، موسيقى الجاز بخاصّة، التي مارسها هو نفسه هاوياً في العزف على «التشيلو»، وداعبه الحلم في تكريس قدراته لها، ثمّ عمل على الإفادة منها في أسلوبه الروائيّ، لا سيّما في معالجة تقطيع فقرات نصّه وعباراته، وفي تفكيك بنية الرواية وتطويع الكلمات، وقبول مساحات من الصمت أو البياض وشيء من «النشاز» المحسوب أو المتعمّد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فالرواية تنتج لديه من تصادم معاينات وتفاصيل، ومن ولع بالهيام والتّرحال يُرجَّح أن يكون ورثه من فلسفة جيل دولوز Gilles Deleuze، الذي يجْهر الكاتب بقربه منه. لقد عملَ دولوز، كما هو معروف، على لفت النظر إلى الحركة في الأماكن، من ترحال وبداوة وهروب فعّال، وأسّس لما دعاه هو نفسه «فلسفة جغرافيّة». أمّا إشنوز فهو القائل: «لئن كان البعض يكتبون روايات تاريخية فأنا أهوى كتابة روايات جغرافيّة». هي إذن عبقريّة المكان ما فتئ يطاردها، دافعاً بأبطاله من أقصى العالم إلى أقصاه.

هو نفسه ترحّل بين مناحي المعرفة والفنون. ولد في السادس والعشرين من ديسمبر 1947 في مدينة أورانج Orange في الجنوب الشرقيّ من فرنسا، لأبٍ طبيبٍ نفسيّ وأمّ رسّامة. ولدى إنهائه الدراسة الثانويّة، بدأ بدراسة الكيمياء، ثمّ انعطف إلى علم الاجتماع، فالموسيقى، ثمّ عقد العزم على ممارسة الكتابة السّرديّة.

نشر إشنوز حتّى الآن ثماني عشرة رواية، وكتب للسّينما عدداً من السيناريوهات. في أحد حواراته الصحافيّة، صرّح أنّه، بفضل قراءة ألفريد جاري، اكتشف أنّ «شاكلة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

السّرد تضارع الحبكة في الأهميّة إن لم تكن تفوقها». كما أكّد على ما يدين به لقراءة غوستاف فلوبير وريمون كونو وجان باتريك مانشيت (الأوّلان غنيّان عن التّعريف، والثالث هو أحد أهمّ كتّاب الرواية البوليسيّة الفرنسيّين في العقود الأخيرة من القرن العشرين) قائلاً: «إنّني أثمّن لدى هؤلاء الكتّاب الثلاثة تَلاعُبهم بالمسافة وبالمنظور والعاطفة، وتلك الغشامة الظاهريّة والاختلال الزائف للتوازن في بناء العبارة، والإيقاع القائم على المناوبة بين التّسارع والهدأة، والألم الكبير الممزوج بسخرية قصوى».

أمّا عن كتابه هذا، الذي يشكّل أنموذجاً دالّاً على أسلوبه المتقشّف والباروكيّ في آنٍ معاً، ففيه يقدّم بورتريهاً مكثّفاً للمؤلّف الموسيقيّ الفرنسيّ الشّهير موريس راڤيل Maurice Ravel، مركّزاً على السنوات العشر الأخيرة من حياته. ولد راڤيل في سيبور Ciboure الواقعة في منطقة الباسك الفرنسيّة، في 7 مارس 1875، وتوفّي بباريس في 28 ديسمبر 1937. تآليفه الموسيقيّة ذائعة الصّيت، وأغلبها مصنّف بين كبار الأعمال، وضعته في مصاف أهمّ مجايليه من الفرنسيّ ديبوسي (الذي خلفه هو في ريادة الموسيقى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الفرنسية لدى وفاته في 1918) إلى الفرنسيّ الآخر بولنْك والرّوسيّ سترافنسكي والمجريّ بارتوك والأمريكيّ غيرشْوين. ومن أهمّ أعمال راڤيل وأشهرها «دافني وكلوويه» و«الكونشيرتو في سلّم الصّول للأوركسترا والبيانو المكتوب لليد اليسرى»، وأغانيه الثّلاث المعنوَنة «من دونكيخوته إلى دولثينا»، و«الكونشيرتو في سلّم الصّول»، وخصوصاً «البوليرو» الشّهير. وفيها كلّها أعرب، باعتراف النقّاد، عن قوّة فكريّة عالية وفي الأوان ذاته عن حسّاسيّة مرهفة تلتقط أخفى حركات الشعور الإنسانيّ. ولكن اعتباراً من صيف 1933 أصيب الفنّان بوهن عصبيّ أثّر سلبياً على ذاكرته وحركاته، يرجعه بعض الأطبّاء إلى مشاكل عانى منها من قبل، أرق مستحوذ بخاصّة، ويردّه البعض الآخر إلى رضّة دماغيّة قد يكون تسبّب بها حادث اصطدام التاكسي الذي كان يقلّه بباريس في 8 أكتوبر 1932. وبسبب هذا الوهن، الذي شوّش ذاكرته وأبطأ حركته، مع بقاء فكره سليماً، بقي يراكم المشاريع ولا يقوى على إنجازها. وقد اتّضح أنّه كان يريد في أحدها وضع عمل موسيقيّ مستوحى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من «ألف ليلة وليلة». بإيجاز، كان موسيقيّاً مقلّاً ولكنّ أعماله في مجملها عالية الأهميّة وبعيدة الأثر، تميّزت بتفرّد كبير، وفي الأوان ذاته بالانفتاح على عديد المصادر الفنيّة وألوان الموسيقى، من القرنين السابع عشر والثامن عشر الفرنسيّين (كوبران ورامو بخاصّة) إلى موسيقى الجاز الأمريكيّة السّوداء والموسيقى الإسبانية.

من هذه الحياة المجيدة، على وجازتها النسبيّة (اثنين وستّين عاماً)، آثر الروائيّ معالجة السنوات العشر الأخيرة، لأنّها بالفعل حافلة بكلّ تناقضات حياة الجسد والرّوح. الهشاشة التي تتخفّى وراء العبقرية وتغذّيها، ولحظات الوجود العاديّ وما يتخلّلها من سأمٍ متسلّط. إيماءات الفنّان وحركاته غير المتماسكة دوماً، هو الذي كان قصير القامة، مولعاً بالأناقة، بفاخر الثياب والعطور والدّخان، والصّدفة الأليمة، حادث السّير الذي طبعَ بالثّقل سنواته الأخيرة وتضافرَ مع آلام سابقة ليمنع المؤلّف الموسيقيّ الكبير من إيجاد شكل لحدوسه الفنيّة، بقيت على هيئة مشاريع وسوانح وأطياف تداعب خياله وتؤرّقه. أثر الأدوية والاعتلال على روح قويّة طامحة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الحنين الدّائم إلى الوطن الأمّ (منطقة الباسك الفرنسيّة) وعزلة الفنّان المحتفى به أنّى حلّ. الأداء المتهوّر الذي كان يقوم به قائد الأوركسترا الإيطاليّ توسكانيني لـ «بوليرو» راڤيل، وتصرُّف العازف النمساويّ الأقطع (بسبب الحرب) بول فتغنشتاين، أخي الفيلسوف الشهير لودفيغ فتغنشتاين، بالكونشيرتو في سلّم الصّول للأوركسترا والبيانو المكتوب لليد اليُسرى، الذي كتبه راڤيل بطلبٍ منه أصلاً، وأمام هذا كلّه صبْر الفنّان الكبير ويقينه من أنّ عمله منذور للأجيال القادمة وأنّه، في جوهره، لا يُمسّ. محنة الذاكرة واضطراب حركات الفنّان الجسدية، يسهب الكاتب في وصفها ببراعة وحياء، في حين يقدّم لنا موتَ الفنّان في سطور ختاميّة قليلة، متسارعة، تضعنا في مواجهة وقعه الصاعق ومفاجأته، موت مبكّر، وعن اعتلال، موت غاشم لا رادّ له.

هذا كلّه ترافقه إحاطة بأجواء الفترة التاريخيّة، بوجوهها الفنيّة وبواخرها وقطاراتها ومقاهيها، وطقوس الوداع وتناقضات المزاج الفنيّ، وتناوب ساعات التكريس المهيب وأفظع لحظات العزلة (تُفتتح الرواية

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مثلاً بصفحة مفاجئة تعبّر عن هشاشة، وعن حاجة للدفء من خلال وصف لحظة الخروج من الحمّام). وهناك أيضاً وصف اللّحظة الإبداعية وسرّ البراعة ولغز النجاح الفنيّ، يأتي من حيث لا يتوقّع الفنّان نفسه، كما في الصفحة الأثيرة المكرّسة لوصف ولادة «البوليرو»، والتي نترك للقارئ الوقوف عليها بنفسه في موضعها. ومن العلامات الأخرى على تقشّف هذه الكتابة أو تكثيفها حتّى على صعيد الشكل أنّ الحوارات تأتي «مدسوسة» داخل السّرد. يعرف القارئ بداية الأقوال ونهايتها وعودة السّرد من خلال نبر الكتابة لا غير.

قد يكون أخيراً من المجدي أن نختتم بهذه العبارات، صرّح بها الكاتب للصحافة الأدبية بخصوص كتابه هذا: «أردت أن أبقى بأقرب ما يمكن من راڤيل، وفي الأوان ذاته إخضاعه لمعالجة روائيّة، بمقاربته كشخصيّة خياليّة». وعن تصريحات راڤيل في روايته، قال إشنوز: «عندما أمنح راڤيل الكلام في هذا الكتاب فأنا أستخدم على الدّوام أقوالاً له، عثرتُ عليها في شهاداتِ مَن عرفوه عن قربٍ وفي مراسلاته. فالكتاب كلّه مبنيّ على معطيات

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فعليّة، فأنا لم أشأ أن أضع على لسانه أقوالاً متخيّلة. بل رأيت أنّ ثمّة جدوى أكبر في استخدام بعض العناصر الواقعيّة استخداماً روائيّاً، ولكن لم أكتب نصّ سيرة».

المُراجِع

كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

1

يَشعرُ المرءُ أحياناً بالذّنب لخروجه من حوض الاستحمام. فمن المؤسف، بدايةً، أن يغادر الماءَ الفاترَ ذا الرّغوة -حيثُ يعانق الشَّعرُ المتساقط الفقاقيع بين خلايا الجلد المدعوك- إلى الهواء المفاجئ في بيتٍ سيّئ التّدفئة. ثمّ، إذا كان المرء قصير القامة، وكانت حافّة الحوض ذي الأقدام المَخلبيّة، مرتفعةً، فإنّه يشقّ عليه دوماً تخطّيه للوصول، بقدم متردّدة، إلى بلاط الحمّام الزّلِق. ولذا يَحسُن التصرّف بحذر، لكي يتجنّب المرءُ إصابة منطقة ما بين الساقَين أو خطر الانزلاق والسُّقوط. بالطبع، من الممكن حلّ هذه الورطة بصنع حوض استحمام على المقاس، ولكنّ هذا يقتضي تكاليف قد تفوق كلفة التّدفئة المركزية، التي زُوّد بها البيت حديثاً، ومع ذلك ظلّت غير كافية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وقد يكون الأفضلُ أن يظلّ المرء غاطساً في الحوض حتّى الرقبة، طيلة ساعات، لا بل على الدّوام، مديراً الصّنبور بقدمه اليمنى، على نحو متقطّع، ليزيد الماء السّاخن قليلاً، ويضبط بذلك منظّم الحرارة، ويحافظ على محيطٍ سَلَويّ[1] مناسب.

ولكنّ الأمر لا يمكن أن يدوم طويلاً، فالوقت يضيقُ كالعادة. وستصل هيلين جوردان مورانج[2] خلال أقلّ من ساعة. انتزع راڤيل نفسه من حوض الاستحمام، ثمّ ارتدى، بعد أن جفّ جسده، بُرنس حمّام رماديّاً بلون اللّؤلؤ، ومُلتفّاً به، نظّف أسنانه بفرشاته ذات المفاصل، وحلَق ذقنه دونَ أن يتركَ ولو شعرة، ثمّ سرّح شعره دونَ أن يهملَ جعدةً واحدة، ونتَف حاجباً نافراً برَز في الليل كأنّه قرنُ استشْعار. وبعد ذلك، تناولَ من على منضدة الزّينة حقيبةً فاخرة لمستلزمات العناية بالأظافر، مصنوعةً

(1) المقصود السائل الغذائيّ الذي يوفّر الحماية للجنين داخل الكيس الأمنيوتيّ في رحم المرأة. (جميع الحواشي وضعها المترجم).

(2) Hélène Jourdan-Morhange (1888–1961): عازفة كمنجة فرنسية، ارتبطت بعلاقة صداقة متينة مع موريس راڤيل وقد أهداها عمله «سوناتا للكمنجة» سنة 1927. أمّا هي فقد كتبت سيرته في مؤلّفين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من أجود جلود الخِراف، بسطح كجلد السّحالي، ومبطّنةً بالحرير، وُضعت بين فُرَش الشَّعر والأمشاط العاجيّة، وزجاجات العطر، واغتنم أثرَ الماء الدافئ في تطرية أظافره كي يقلّمها من دون ألم بالطّول المناسب. ثمّ ألقى نظرة عبر نافذة الحمّام المُهيّأةِ بفنٍّ مُتقن على الحديقة التي اكتَسَت بالأبيض والأسود أسفلَ الأشجار العارية: العشبُ القصير ميْت، ونافورةُ الماء عطلّها الجليد. إنّه يوم من أواخر أيّام عام 1927. الوقت مبّكر. كان قد نام نوماً مضطَرباً وغيرَ كافٍ كما في كلّ ليلة، فكان مزاجه معكّراً كما في كلّ صباح، حتّى إنّه لم يدْرِ ماذا يَلبِس، ما زاد مزاجَه تعكّراً.

صعدَ درجَ بيْته الصغير ذي البناء المعقّد: ثلاثة طوابق من جهة الحديقة غير أنه لا يُرى من الخارج سوى طابق واحد. من الطّابق الثالث الواقع على مستوى الشارع مباشرة، ألقى راڤيل نظرةً فاحصة عبر نافذةٍ في الممرّ ليخمّن سُمك الثيّاب التي يرتديها المارّة، فيعرف بذلك ما ينبغي عليه ارتداؤه. ولكنّ الوقت كان مبكّراً جداً بالنسبة لبلدة مونفور-لاموري. لم يكن هناك أحدٌ ولا شيءٌ،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

سوى سيّارة بيجو 201صغيرة، رماديّةٍ وقديمةٍ بعض الشّيء، متوقّفةٍ أمام بيْته وفي داخلها هيلين. لا شيء آخر في العالم يُرى. كانت السّماء المكفهرّة تكتنفُ شمساً شاحبة.

ولا شيء يُسمع أيضاً في أيّ مكان. كان الصّمت مخيّماً في المطبخ، بعد أن صرف راڤيل، الذي كان يتأهبّ للسّفر، السيدة ريفِلو. كان متأخّراً كالعادة، فأخذ يرغي ويزبد وهو يشعل سيجارة، فيما توجّب عليه، في الوقت ذاته، أن يرتديَ ملابسه بسرعة ملتقطاً ما وقع منها بين يديْه بالصدفة. ثمّ إنّ توضيب أمتعته هو ما أثار حنقه، مع أنّ الأمر لا يتعدّى تعبئة صندوق صغير، إذ كانت مجموعة حقائبه قد سبَقتُه إلى باريس قبل يومَين. وبعد أنْ تجهّز، شرع راڤيل في تفقّد بيْته؛ تأكّد من أنّ النوافذ جميعها مغلقة، وأنّ بابَ الحديقة مُوصدٌ بالقفل، والغازَ في المطبخ مقطوع، وعدّادَ الكهرباء في المدخل مفصول. إنّه بيت صغيرٌ حقّاً، تنتهي جولة تفقّده سريعاً، لكنّ المرء لا يكتفي أبداً من التدقيق. لذا، تأكّد راڤيل للمرّة الأخيرة من أنّه قد أطفأ سخّان المياه قبل أن يخرج، مُدمدِماً مرّة أخرى بغضبٍ وبصوتٍ خفيضٍ حين فتح الباب فباغت الهواءُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الثلجيُّ شعرَه الأبيض، الذي كان ما يزالُ رطباً ومسرّحاً إلى الوراء.

أسفل الدّرجات الثماني الضيّقة، كانت تصطّف في الشارع المنحدِر سيّارةُ البيجو 201 في وضع الفرْملة، وخلف مقْوَدها ترتجف هيلين، وهي تدقّ عليه بأطراف أصابعها التي برَزَتْ مكشوفةً من قفّازٍ مِعصميٍّ من الصّوف المحبوك، ماركة «بوتون دور». هيلين امرأة على قدرٍ من الجمال، ولعلّها تشبِه أوران ديمازيس[1]، لمن يتذكّرُها. ولكن في تلك الأيام، كان يمكن أن يكون لعددٍ غير قليلٍ من النساء شيء من ملامح أوران ديمازيس. كانت هيلين ترتدي تحت معطفٍ من فرو الظربان الأمريكي-وقد رَفَعت ياقتَه- فستاناً بصدارٍ طويل، ذي خصر خفيضٍ يجعله يبدو مثل سترةٍ، فيما التنوّرة مزركشة بشريطٍ تنْتَظم فيه حلقاتٌ قرنيّةُ الشّكل، وذلكَ كلُّه بقماش حريريّ مموّجٍ بدرجة من اللّون المشمشيّ، ومزيّنٍ برسومٍ نباتيّة. جميل جدّاً. وكانت تنتظر. وليس منذ وقتٍ قصير.

(1) Orane Demazis ممثّلة فرنسية (1894–1991)، اقترن اسمها بمارسيل بانيول Marcel Pagnol زوجةً وبطلة لأهمّ أفلامه: «ثلاثية مرسيليا» *La Trilogie de Marseille*.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لقد مضى أكثرُ من نصف ساعةٍ وهيلينْ تنتظر في ذلك الصّباح المُتجمّد بين عيدَين راڤيل الذي ظهر أخيراً وفي يده حقيبة. كان يرتدي بذلة رماديّة غامقةً، تحت معطف قصير بِلون الشوكولاتة على قدرٍ من الأناقة هو الآخر، مع أنّه قديم الطراز وخفيف ربّما، بالنسبة لذلك الفصل من السّنة. بعكّازته المعلّقة في ذراعه، وقفّازيْه المزْدودَين على معصمِه، كان يبدو مثل مُراهنٍ أنيق، وبالأحرى مثلَ مالكِ خيولٍ في مقصوراتِ سباق ديان[1] أو في ساحة وزن الفرسان في مضْمار إنغان[2]، مربّي خيلٍ يهتمُّ بمُهره الحَوْليّ أقلّ من اهتمامه بتميّز ثيابه عن الجاكتات الرماديّة الكلاسيكيّة أو السُّترات المستقيمة من الكتّان. ركبَ برشاقةٍ سيّارة البيجو وجلس متنهّداً. أمسك بثنياتِ بنطاله عند الركبتين وشدّها سريعاً ليتجنّب انتفاخها. حسناً! قال وهو يفكّ أوّل أزرار معطفه، أظنّ أنّه يمكننا أنْ ننطلق. استدارت هيلين نحوه وتفحّصته سريعاً من أعلى رأسه حتّى أخمص قدميه: كان موفّقاً، كعادته دوماً، في مواءمة

(1) سباق خيل فرنسي شهير يقام في مضمار شانتيّي منذ 1843.
(2) بلدة بالقرب من باريس، يقام فيها سباق شهير للخيول.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جوربيْه القطنيَّين ومنديله الحريريّ مع ربطة عنقه.

كان في وسْعكَ، ربّما، أن تدعَني أنتظرُ في بيْتك عوض الانتظار في السّيارة، جازفتْ بالقول وهي تدير المحرّك، لقد رأيتَ برودةَ الطقس. ردّ راڤيل بأنّه كان عليه أنْ يُرتّبَ البيت قليلاً قبل الخروج وأنَ ذلك لم يكن هيّناً؛ إذ تعيّن عليه أن يذرع المكان كلّه، ناهيكَ عن أنّه لم يغمض له جفن طيلةَ اللّيل كالعادة، وقد اضْطُرّ لأن ينهضَ مع الفجر، وهو يكره ذلك، وهي تعرف كم يكره ذلك. مِثلما تعرفُ كم هو ضيّقٌ بيته، وهو ما كان سيزعِجها. ومع كلّ هذا، قالت هيلين، فقد كِدْتُ أُصاب بالبرد بسببك. هيّا، يا هيلين! قال وهو يشعل سيجارة غولواز، في أيّ ساعةٍ بالضبط ينطلقُ القطار؟

الحاديةَ عشرة واثنتا عشرةَ دقيقة، أجابت وهي تنطلق. اجتازا مونفور لاموري، المقفِرةَ والمتجمّدة مثل طبقةٍ جليدية يغمرها في الوقت ذاته ضوءٌ ساطع. قبل الخروج من مونفور لاموري، عبَرا بالقرب من الكنيسة، من أمام بيتٍ بورجوازيّ كبير، لإحدى نوافذه في الطابق الأوّل شكل مثلّثٍ أصفر. قال راڤيل إنّ صديقه زُغيب

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قد استيقظ مبكّراً، على ما يبدو. ثمّ بلغا فِرساي، فسلكا جادّة باريس، وحين تردّدت هيلين عند أحد المفارق تاركةً السيّارة تنحرف قليلاً، احتجّ راڤيل بعض الشيء: كم هي سيّئة قيادتك! إنّ أخي إدوار يقود السيارة أفضل منك بكثير. في رأيي، لن تنجحي أبداً في هذا. عند مدخل سيڤْر، داست هيلين على الفرامل فجأةً حين لمحت على الرصيف رجلاً يعتمر قبّعة من لبّادٍ ويتأبّطُ ما بدا لوحةً كبيرةً مغلّفةً بورق جرائد. تركت هيلين الرّجُل يعبر، ليس لأنّه قد بدا عليه أنّه ينتظر فحسب، بل تحديداً كي تتمعّن في راڤيل، وقد بدا وجهُه أكثر حدّةً وشحوباً ونحولاً من أيّ وقت مضى؛ فحين أغمض عينيه لِلحظةٍ، بدا وجهه أشبه ما يكون بقناعه الجنائزيّ. هل أنت بخير؟

أجاب أنّه بخير وأنّ الأمور ستكون على ما يرام؛ لكنّه ما زال يشعر بإرهاقٍ شديد. وبعدَ أن طلب منه طبيبُه إجراء سلسلةٍ من الفحوص، أراد أن يخضعه للعلاج بالمنشّطات استعداداً لهذه الرحلة، وقد أزعجه رفض راڤيل لنُصْحِه إيّاه بالراحة التامة لمدّة عام. لذا خضع لِحُقَنٍ مكثّفةٍ من الخلاصات النخاميّة والكظْرية والأمصال الخلويّة وأملاح

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الكاكوديل. كان يتلقّى الحقنة تلو الأخرى، وما من أحد يحبّ ذلك. لكنّ النتيجة لم تكن مرْضية، وحين اقترحت هيلين أن يغيّر العلاج، أجاب بأنّ هذا هو أيضاً رأي زميلٍ كتَب إليه مؤخّراً يدعوه للتوجّه إلى الطب التجانسيّ[1]: بعض الناس لا يؤمن إلّا بهذا؛ الطبّ التجانسيّ. على كلّ حال، سيفكّر بالأمر عند عودته. ثمّ سكَت ليتأمّل لِلحظاتٍ مناظرَ «سيفر»، لكنْ لم يكن هنالك الكثير ما يمكن رؤيته حقّاً في «سيفر» ذلكَ الصباح، عدا بناياتٍ رماديةٍ موصدةِ الأبواب، وثيابٍ قاتمةٍ مزرّرةٍ، وقبّعاتٍ غامقةٍ فوق الرّؤوس، وسيّاراتٍ سوداءَ مغلقةِ النوافذ. لم يعد متيقّناً من رغبته في السفر الآن. يحدث الأمر ذاته دوماً، أليْسَ كذلك؟ يقبلُ الاقتراحات دون تفكير، وفي اللّحظة الأخيرة، يغتّم لذلك. والسجائر؟ هل تأكّدت هيلين حقّاً من أنهم تدبّروا أمر توفيرها له طيلة فترة سفره؟ أجابت هيلين بأنَ كلّ شيء قد أُخذ بالحسبان. وماذا عن تذاكر

(1) الطبّ التجانسيّ أو الهوميوباتي حسب الاسم اليونانيّ، طريقة في المداواة بالدّاء، يُرجعها مؤرّخو الطبّ إلى الإغريقيّ أبقراط، تقوم على إعطاء المريض موادّ تظهر أعراضاً مشابهة لأعراض مرضه إذا تناولها شخص صحيح، أي ما تدعوه العرب علاج المثْل بالمثْل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

القطار؟ هل التّذاكرُ بحوْزتها حقاً؟ كلّ شيء هنا، قالت هيلين وهي تشير إلى حقيبة يدها.

دخلا باريس من بوّابة سان كلو، بلغا نهر السين فحاذياه عبر الرّصيف حتّى ساحة الكونكورد ومن هناك توغّلا في الجزء الشماليّ من المدينة صوْبَ محطّة سان لازار. كان المكان، بالطبع، أكثر نشاطاً وحيويّة من الضاحية الغربية، ولكن ليس أكثرَ بكثيرٍ في الحقيقة. يُرى رجالٌ يعتلون درّاجاتٍ هوائية، وملصقاتٌ على الجدران، ونساءٌ حاسرات الرؤوس، وعددٌ لا بأس به من السيّارات، بعضها فاخرٌ من طراز بانار لفاسور أو روزنغار. حين بلغا نهاية شارع «لابيبينيَير» لمحا، وقد وَلجا شارع روما، سيّارةً طويلةً من طراز سالمسون فال 3، ثنائية اللون، برّاقةً وانسيابيّة الشكل مثل حذاء القوّاد.

قُبَيْلَ العاشرةِ، ركنَتْ هيلين سيّارتها البيجو المتواضعةَ أمام فندق تيرمينوس، ثمّ انتقلا إلى كريتيريون، الحانةِ التي اعتاد راڤيل ارتيادها في «لا كور دو هاڤر»[1] حيث كانت في انتظاره، أمام المشروبات الساخنة، مارسيل جيرار ومادلين

(1) ساحة صغيرة ملاصقة لمحطّة سان لازار بباريس.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

غراي، وهما مغنيّتان تنتميان للنّوع الذي كان يطلق عليه آنذاك اسم المغنّيات الذكيّات[1]. تمّهلَ راڤيل كثيراً قبل أن يطلب فنجان قهوة، ثمّ آخرَ شربه ببطءٍ أكبر، فيما الشابّات الثلاثُ يُطالعن أكثر فأكثر رقّاصّ الساعة أعلى طاولة البار وهنّ يتبادلن النّظرات المتسائلة. بدأ ينتابهن القلق، فاستعجلن الأمر حاسماتٍ قرارَهنّ باصطحاب راڤيل إلى محطّة القطار المواجهة تماماً للكريتريون، لكي يصلوا قبل انطلاق القطار الخاصّ بنصف ساعة. لم يكن القطار على الرصيف حين وصلوا؛ راڤيل في المقدمة، تتبعه عن بعدٍ صديقاته اللاتي يحاولن بشيء من المشقّة مساعدةَ اثنين من حمالّي فندق تيرمينوس في جرّ أربع حقائب كبيرة، إضافة إلى صندوق. كانت الأمتعة ثقيلةً جدّاً، لكنّ أولئك الشابات كنّ شغوفاتٍ بالموسيقى.

مُنحنياً على السكّة الحديديّة، أشعل راڤيل سيجارة غولواز قبل أن يُخرج من جيْب معطفه جريدة «لانترانسيجان» التي كان قد اشتراها للتوّ من أحد الأكشاك حين لم يجد «لوبوبولير»، جريدته المعتادة. وبما

(1) تعبير ملطّف به كانت تُنعت المغنيّات غير جميلات الأصوات.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنّنا كنّا في أواخر السّنة، فقد عرضت الجريدة، حسب التقاليد، حصيلة العام، مذّكرةً بإعادة العمل بنظام الانتخاب حسب الدوائر السكنيّة، وإطلاق الباخرة عابرة المحيطات «كاب أركونا»، وإعدام ساكو وفانزيتي صعقاً بالكهرباء، وإنتاج أوّل فيلم سينمائيّ ناطق، واختراع التلفاز. ولئن كانت الجريدة لَم تستطع ذِكر كلّ ما حصل في ذلك العام في مجال الموسيقى عبر العالم، كولادة جيري ماليغان، مثلاً، إلّا أنّها ذكرت افتتاح قاعة حفلات بليّيل الجديدة مؤّخراً، الأمر الذي توقّف عنده راڤيل قليلاً، باحثاً عن اسمه في المقال، هازّا كتفيه بعد أن عثر عليه. وحين لحقت به الشابّات لاهثاتٍ، وقد تركن لخدم فندق تيرمينوس مهمّة جمع الحقائب على حافة الرّصيف على شكلِ هرَم، سألتْ هيلين بخجلٍ عن الأخبار وهي تشير إلى الجريدة. ما من شيءٍ مهّم، ردّ قائلاً، ما من شيء مهّم. على كلّ حال، إنّها جريدة يمينيّة، أليس كذلك؟

ظهر القطار الخاصّ أخيراً، تجرّه قاطرةٌ من نوع 120، بنسخة مختلطة من الـ 111 بوديكوم ذات السرعة العالية. بدأ الخدمُ يشحنون الحقائب في المقصورات المخصّصة لذلك،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فيما راڤيل يودّع السيدات، مُبدياً كلّ لباقته في المجاملات وتقبيل الأيدي والتشكّرات والعبارات الوديّة. ثمّ صعد إلى عربة الدّرجة الأولى، ليجد دون عناءٍ مقعده المحجوز قرب النّافذة. أنزل الزّجاج، وواصلَ التبادل البشوش للكلمات التي راحت تتناقص حتّى لحظة الانطلاق، حين أخرجت تلك السيدات مناديلهنّ من حقائبهنّ وأخذن يلوّحن بها. لم يلوّح راڤيل بشيء، واكتفى بابتسامة أخيرة شبه متشنّجة وإشارة من يده قبل أن يرفع زجاج النّافذة ويعود لقراءة الجريدة.

انطلق صوْب محطّة لوهاڤر البحريّة، كي يُبحرَ إلى أميركا الشماليّة. إنّها زيارته الأولى لتلك البلاد، وستكون الأخيرة. فما تبقىّ له من الحياة، مُنذ ذلك اليوم، هو عشر سنوات بالضّبْط.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

2

أمّا بخصوص الباخرةِ عابرةِ المحيطات» فرانس» (ثاني باخرة تحمل هذا الاسم)، التي ستقلّ راقيل على متنها إلى أميركا، فلا يزال أمامها تسع سنوات من النشاط، قبل أن تباع لليابانيّين ليتمّ تفكيكُها. كانت الباخرةُ جزءاً من الأسطول العابر للمحيطات؛ كتلةً من الفولاذ المُبَرْشَم تعلوها أربعُ مداخن واحدةٌ منها على سبيل الزّينة، وجسماً طوله مائة وعشرون متراً وعرضُه ثلاثة وعشرون، وقد شيّدت قبل خمسة وعشرين عاماً في ورشات سان نازير بينْويه. كانت تتّسع في درجاتها من الأولى إلى الرابعة لحوالى ألفَيْ مسافر، علاوةً على خمسمائة رجل يتكوّن منهم طاقم البحّارة وهيئة القيادة. وكان يكفيها ستّةُ أيام لقطع المحيط الأطلسيّ على مهلٍ، بحمولتها البالغة اثنَين وعشرين

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ألفاً وخمسمائة طنّ[1]، المقذوفة بسرعة يبلغ معدّلها ثلاثاً وعشرين عقدةً بفضل أربع مجموعاتٍ من الطوربينات من طراز بارسونز، يزوّدها بالوقود اثنان وثلاثون مرجَلاً من نوع برودون-كابوس، لتولّد قوةَ أربعين ألف حصان، بينما بواخر الأسطول الأخرى الأقلّ قوة تجهدُ لاهثةً لتقطع المسافة ذاتَها في تسعة أيام.

لم تكن الباخرة فرانس -وهي بمثابة فندق «بخاريّ» من سلسلة ريتز أو كارلتون- تراهن على السّرعة فحسب؛ بل على الرّفاهية أيضاً، كورقتَين رابحتَين. ما إنْ تقدّم راقيل للصعود على متن الباخرة حتّى قاده بحّارةٌ تلاميذ، أنيقون في زِيّ سُعاةٍ أحمرَ فاقعٍ وجديد، عبر سلالمَ وممرّاتٍ جانبيةٍ إلى الجناح الذي خُصّص له: شقّةٌ فاخرةٌ ذات زخارف خشبيّةٍ مختلفةِ العناصر -جمّيزٌ وبلّوطٌ مجَريّ، وقَيْقبٌ نبيذيّ اللّون أو رماديٌّ مبقّع-، بُسُطٌ من الشّيت، أثاثٌ من خشب اللّيمون والبليساندر، وحمّامٌ مزدوج قرمزيّ

(1) يمثّل الطّن سعة برميل يساوي 252 غالوناً. والحمولات التي تقاس بها سعة السفينة نوعان، حمولات تقاس بالحجم وأخرى تقاس بالوزن، أمّا بالنسبة للحمولات التي تقاس بالحجم فالطنّ يساوي 100 قدم مكعّب أو 2,83 متر مكعّب.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

اللّون مع رخام متعدّد الألوان. وبعدَ أن تفحّص راڤيل المكان سريعاً، ألقى نظرة من إحدى الكوى المستديرة التي كان ما يزال ممكناً رؤية الرّصيف من خلالها. تأمّلَ حشدَ الأهالي والأقارب الذين هرعوا إلى الرصيف مُلوِّحين بالمناديل، كما في محطّة قطارات سان لازار بباريس، وبالقبّعات والورود وأشياء أخرى. لم يحاول معرفة أيّ شخصٍ في ذلك الحشْد؛ فهو وإن قبِل الرّفقة إلى المطار، إلا إنّه آثر ركوب الباخرة وحيداً. بعد أن خلع معطفه، وفرد بعض الأمتعة، ورتّب أدوات الزّينة حول حوض المغسلة، سارع إلى المُشرف على قاعة الطّعام، ليحجزَ مكاناً لنفسه، ثمّ إلى المسؤول عن سطح السفينة ليحجزَ موضعاً لكرسيّ استرخاءٍ طويل. وفي انتظار الإبحار، تلكّأ قليلاً في غرفة التّدخين الأقرب إليه. كانت جدرانُها المصنوعة من خشب الماهاغوني مرصّعةً بعروق اللّؤلؤ. دخنّ فيها سيجارة غولواز أو اثنتين، وقد خُيِّل إليه بسبب بعض النّظرات التي أطالت التحديق فيه أو تلك التي أشاحت عنه، وبعض الابتسامات الخفيّة أو المتواطئة، أنّ الناس قد عرفوه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان هنالك ما يجعلهم يعرفونه، ذلك أمرٌ طبيعيّ؛ إذ كان قد بلغَ ذروة المجد في سنّ الثانية والخمسين، مشاطراً سترافنسكي مكانةَ الموسيقيّ الأكثر تقديراً في العالم، وقد أمكن مراراً رؤية صورته في الجريدة. وذلك طبيعيٌّ أيضا بسبب مظهره الجسديّ: إنّ وجهَه الحادَّ الملامح، الحليقَ تماماً يرسم مع أنفه الطويل مثلّثَين رفيعَين، يعلو أحدهما الآخر عموديّاً. النظرة غاضبة وحادّة وقلقة، الحاجبان كثيفان، الشّعر مُسرَّحٌ إلى الوراء كاشفاً عن جبينٍ عالٍ، الشفتان رقيقتان، الأذنان بارزتان بلا شحمتَين، والبشرةُ كامدة. تحفّظٌ أنيق، بساطةٌ مهذّبة، تأدبٌّ يتّسم بالبرود، وهو ليس كثيرَ الكلام بالضرورة، إنه رجلٌ جافّ لكنّه لبِقٌ، وفي غاية الأناقة طوال الوقت.

غير أنّه لم يكن أمردَ دائماً، فقد جرّب كلّ شيء في شبابه: كان، وهو في الخامسة والعشرين، ذا سالفينِ متناسقين مع نظّارةٍ بعدسة مفردةٍ وسلسلة، ولحيةٍ مدبّبةٍ في سنّ الثلاثين، أعقبتها تجربة إطالة لحيةٍ مربّعةٍ ثمّ شاربين. وفي الخامسة والثلاثين، حلق كلّ ذلك، مقصّراً أيضاً شَعره الذي تحوّل من شَعرٍ ضافٍ إلى تسريحةٍ منضبطةٍ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ومستويةٍ على الدّوام، ثمّ ما لبث أن غزاه الشّيب. ولكنّ ملْمحه الأساس كان قامتَه، وقد كان يعاني منها، فهي تجعل رأسه يبدو أضخم قليلاً ممّا يجب، بالقياس إلى جِسْمِه. كان راڤيل، بِطولِه البالغ متراً وواحداً وستّين سنتمتراً، ووزنه البالغ خمسةً وأربعين كيلوغراماً، ومحيطِ صدره الذي يصل إلى ستّة وسبعين سنتمتراً، بحجم فارس سباقٍ، أي بحجم ويليام فوكنر، الذي كان، في الفترة ذاتها، يوزِّع حياته بين مدينتَين، أوكسفورد في الميسيسبي ونيو أورليانز، وبين كتابين، «البعوض» و«سارتوريس»، وبين نوعين من الويسكي، جاك دانيلز وجاك دانيلز.

كانت السماء الغائمة تكتنف شمساً غير واضحة حين صعد راڤيل، وقد نبّهتُه الصّافرات معلنةً بدء الإبحار، إلى سطح الباخرة العلويّ لكي يراقب حركة الباخرة من خلف الزّجاج. بدا أنّ التعب العظيم الذي اشتكى منه في ذلك الصباح، في سيّارة البيجو 201، قد تلاشى مع انطلاق الصفّارات الثلاثية الأنغام (دو مي دو). فجأةً، شعر بنفسه خفيفاً، ممتلئاً بالنشاط، حيويّاً، حتّى أنّه خرج إلى الهواء الطلق. لكنّه لم يمكثْ طويلاً، إذ سرعان ما أحسّ بالبرد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الشّديد من دون معطفه. فشدّ أطراف سترته على صدره وهو يرتجف. وجعلت الريحُ التي هبّت دفعةً واحدةً ثيابَه تلتصق بجلْده، منكرةً بذلك وجودها وجدواها. وبما أنّها هاجمت مباشرةً سطح جسمه، أحسّ الرّجل نفسه عارياً، وحاول أكثر من مرّة تمالك نفسه كي يُشعل سيجارة، لكنّ أعواد الثّقاب كانت تنطفئ سريعاً. نجحت محاولاتُه أخيراً، ولكنْ هذه المرّة، وكما حدث في الجبال -كان هذا تذكّراً خاطفاً للمصحّ[1]- لم يعد لسيجارة الغولواز طعمُها المُعتاد. لقد استغلّت الريحُ الدّخان لتنفذ معه إلى رئتَي راڤيل، وليحلّ البردُ في جسده من الدّاخل هذه المرّة. لقد هاجَمَتْه من كلّ الجهات، فقطعت نفَسَه، وبعثرت شَعره ونثرت رماد سيجارته على ملابسه وفي عيْنَيه. وحين تجاوز عدمُ التكافؤ في المعركة الحدّ، بات من الأجدر الانسحاب. عاد راڤيل، كما فعل الآخرون، إلى ما وراء الكوّة المزجَّجة، ليراقب مناورة الباخرة وهي تدور ببطء في ميناء لوهاڤر، ثمّ تعبر المرسى وهدير محرِّكاتها يعلو قبل أن تخرج خروجاً

(1) إشارة إلى الوقت الذي أمضاه راڤيل في مصحّ مالميزون Le Sanatorium de la Malmaison، للعلاج من مرض السّلّ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

رائعاً من أمام سانت آدريس ورأس لا إيف.

وبما أنّ الباخرة سرعان ما باتت في قلب البحر، فقد ملّ المسافرون المشهد بالسّرعة ذاتها، وغادروا الواحد إثر الآخرِ الكوّةَ المزجّجة، لكي يتأملّوا مُنبهرين تجهيزاتِ «فرانس» الباذخة؛ نحاسِيّاتها وزخارفها التي من خشب الورد، وحريرها الدمشقيّ وأباريزها، وشمعداناتها وبُسُطِها. أمّا راڤيل، فلبِثَ في مكانه، مؤْثِراً أن يتأمّل لأطول فترةٍ ممكنةٍ ذلك السّطحَ الأخضر والرماديّ، الذي تتخلّلُه خيوطٌ بيضاء خاطفة، على أمل أن يستلْهم منها لحناً أو إيقاعاً، أو لازمة، لِمَ لا؟ كان يعلم أنّ ذلك لا يحدث على هذا النحو أبداً، أنّ ذَلك لن ينجح بهذه الطريقة، أنْ لا وجود للإلهام، وأنّ المرْء لا يؤلّف الموسيقى إلّا جالساً خلف البيانو. ومع ذلك، ولأنّه كان للمرّة الأولى في حياته أمام مشهدٍ كهذا، لم تكنْ المحاولةُ لتكلّفه شيئاً. لكنْ بعد لحظات، تبيّنَ أنّه ما من فكرة قد خطرت له، وبدأ هو أيضاً يمَلُّ، وأطلّ شبحُ السأم برأسه، يداً بيدٍ مع التّعب الذي عاد مثل البومرانغ[1]. هذه الاستعارات المتنافرة تشهد

(1) البومرانغ: لعبة صغيرة من الخشب أو من موادّ أخرى، ابتكرها سكّان =

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أيضاً بأنّه قد يكون من الأفضل الإخلاد إلى الرّاحة قليلاً. تاه راقيل في أحشاء السّفينة باحثاً عن جناحه الخاصّ، وقد شعر بشيء من المتعة في الضياع في ذلك البناء وسط الماء. وما إن بَلغَه حتّى تمدَد في سريره، منتظراً التوقّف في ساوثمبتون التي كان يُتَوقّع الوصول إليها مع هبوط الليل، ثمّ الانطلاق مجدّداً لتبدأ حقّاً رحلةُ عبور الأطلسيّ.

عاوده الشعور بالضَّعف، إذ كان غداؤه بيضةً مسلوقةً فقط، التهمها على رصيف الركوب، ثمّ تشبّع صدره الهشّ بجرعات عظيمة من هواء البحر. متمدّداً، جاهد لكي ينام قليلاً، إلّا أنّ الصراع بين توتّر أعصابه وفتور جسده فاقَم كليهما، فنجم عنه تعبٌ ثالث، جسديٌّ ومعنويٌّ يفوق حاصل مكوّناته. استقام وحاول أن يقرأ قليلاً، لكنّ نظرتَه كانت تنزلق على السطور من دون أن تستخلص منها أيّ معنىً. مستسلماً، نهض ليذرع الجناح متفحّصاً كلّ تفاصيله، ولكن بلا نتيجة، فقرّر أخيراً

= أستراليا الأصليّون (الأبوريجين)، مصنوعة بحيث يطلقها اللّاعب في الفضاء فتتبع فيه مساراً منحنياً ثمّ تعود إلى راميها. وقد صنعت بعض القبائل أسلحة أو أدوات صيد تعتمد المبدأ ذاته، ولذا تُترجم الكلمة أحياناً إلى «السلاح المرتدّ».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تفتيش أمتعته ليتأكّد من أنه لم ينسَ شيئاً. لا، لم ينسَ أيّ شيء. فبالإضافة إلى حقيبةٍ زرقاءَ صغيرةٍ محشوّةٍ إلى آخرها بسجائر الغولواز، احتوت الحقائب الأخرى، مثلاً، على ستّين قميصاً، وعشرين زوجاً من الأحذية، وخمساً وسبعين ربطةَ عنقٍ وخمساً وعشرين بيجامة، وهذا ما يعطي، وفقاً لمبدأ «الجزء يدلّ على الكلّ»، فكرةً عن مجموع ما تضمّه خزانةُ ثيابِه.

لطالَما اعتنى بتكوين تلك الخزانة وبصيانتها وتجديدها، وكان يتبع دائماً أحدث اتّجاهات الموضة، هذا حين لا يكون قد سبقها. فهو أوّل من ارتدى، في فرنسا، قمصان الباستيل، وأوّل من ارتدى كامل ملابسِه باللّون الأبيض -«التريكو»، والبنطال، والجوارب، والحذاء- وحين كان يطيب له ذلك، كان يبدي انتباهاً وعناية كبيرين لهذه المسألة. لقد شوهد، في شبابه، بملابسَ سوداء وصدارٍ مُذهل، وقميصٍ بكَشْكَش، وقبّعة عالية بزنْبَرك، وقفازّين أصفرين. كما رأيناه مع ساتي[1]، مرتدياً معطف راغلان[2]؛

(1) إريك ساتي Erik Satie، مؤلف موسيقيّ وعازف بيانو فرنسي (1866-1925).

(2) معطف يمتدّ كمّاه حتّى العنق.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بيده عصا خيزران بمقبضٍ مقوّس، معتمراً قبعة ديربي؛ كان ذلك قبل أن يبدأ ساتي بالحديث عنه بالسّوء. وقد شوهد شاردَ النظرات ممرِّراً يده تحت طيّة ريدنغوت[1]، معتمراً هذه المرّة قبّعة كرونشتات[2] خلال استراحة المرشَّحين لجائزة روما؛ كان ذلك قبل إقصائه منها خمس مرّاتٍ متتالية، إذ كانت الحريّة المفرطة التي تعامل بها مع «الكانتاتا» أكبر من أن يتقبّلها أعضاء لجنة التحكيم، الذين أكّدوا أنّه إنْ كان من حقّه أنْ يتوّهم أنّهم رجال إطفاء فلن يكون بوسعه أن يستغبِيَهم من دون أن يعاقَب على ذلك. كما شوهد يرتدي بذلة باللّونين الأبيض والأسود، وجوربين مخطّطين باللونَين ذاتيهما، وحذاءً أبيض، وعلى رأسه قبّعة من قشّ، وفي يده عكّازة كأنّها امتداد لذراعه، فالعكّازة لِلْيد كالابتسامة للشفتَين. وقد رأيناه أيضاً، في بيت ألما ماهلر[3]، مكسوّاً بقماش التفتا اللّامع؛ كان ذلك قبل أن تُشيع ألما عباراتٍ ملتبسةً بخصوصه. وفي ما عدا

(1) معطف طويل فضفاض يصل إلى حدّ الركبتين، كان في الماضي يُرتدى في ألعاب الفروسية والحفلات.

(2) نسبة إلى المدينة الروسية التي تحمل الاسم ذاته.

(3) موسيقيّة وفنّان تشكيلية نمساويّة (1879–1964).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ذلك، كان لديه بُرنس حمّامٍ أسودُ مطرّزٌ بالذّهب، وبذلتا سموكن؛ واحدةٌ في باريسَ والأخرى في مونفور.

حين علا صوت الصفّارات ثانيةً معلناً الوصول إلى ساوثمبتون، ارتدى راڤيل معطفه وصعد ليشاهدَ عملية محاذاة الرصيف ثمّ الرسوّ. من السطح العلْويّ، في الليل الذي هبط فجأة، وبعد أن أتاح خطّ النقاط المائلة إلى الصّفرة الذي شكّلتْه المصابيح رؤيةَ ضفتيّ الممرّ المائيّ الضيّق المؤدّي إلى الميناء، غدا هذا مضاءً بصورة أفضل. فبدأ راڤيل يتبيّنُ هياكلَ الرافعات الشّاهقة المنصوبةِ على أرصفة المرفأ، وسفينةَ «موريتانيا» راسيةً في حوض جافٍّ، والملاكَ البرونزيّ أعلى الصّرح التذكاريّ لسفينة تايتانيك، وقطاراً أخضر من قطارات «ساوثرن ريلوي» متوقّفاً على حافّة الرصيف، الذي لمح عليه أيضاً، قبل اقتراب الباخرة منه بقليل، مجموعةً من الأشخاص. انفصل أحد هؤلاء عن المجموعة، وكان يحمل في يده ملفّاً، بعد أن رسَت السّفينة، ثمّ صعدَ بخطوة رشيقة إلى متْنها، فور وضع السلّم المتحرّك.

بوجهٍ هادئ وبذلة أنيقة وصوت عذب، ونظّارة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بعدسة مفردة، وقميصٍ بياقةٍ مقصوصة، بدا جورج جان أوبري[1] مثل أستاذ جامعيٍّ أو طبيبٍ، أو طبيبٍ شرعيّ، أو مثل أستاذ طبٍّ شرعيّ. كان راڤيل قد التقاه قبل أكثر من ثلاثين عاماً، في قاعة «إيرار»، يومَ قُدِّم عرضُ «مرايا» للجمهور بأداء ريكاردو بينييس[2]. جاء جان أوبري المقيم في لندن إلى ساوثمبتون لتحيّة راڤيل خلال هذا التوقّف القصير، ولكي يقدّم له نسخة من ترجمته لكتاب جوزيف كونراد «السّهم الذهبيّ»، التي كان قد انتهى من إنجازها للتوّ، بغية نشرها العام التالي لدى دار غاليمار، وقد خطر له أنّ قراءة الكتاب قد تشغل وقت راڤيل خلال الرّحلة. أمّا كونراد، فكان قد مضى على وفاته ثلاث سنوات.

(1) ناقد موسيقي ومترجم فرنسي (1882–1950). صديق جوزيف كونراد، ومترجمه، وكاتب سيرته.

(2) Ricardo Viñes عازف بيانو إسباني (1875–1945).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

3

كان راڤيل وجان أوبري قد زاراه قبل وفاته بثلاثة أعوام ولم تكن بالزّيارة الممتعة. كان كونراد أعرض منكباً من راڤيل، لكنّه كان قصير القامة مثله، مثلّث الوجه، وبالأحرى، قليل الكلام، لميلٍ طبيعيٍّ لديه إلى عدم البوح بمكنوناته عزّزه اعتلالٌ في صحّته، فقد كان مصاباً بوهن الأعصاب، تتملكّه نوباتُ الغضب، كما أقعدتْه عن الحركة آلامُ أسفلِ الظّهر والنّقرس الذي أصاب معصميه وأصابعه. أمّا إذا قبِل أن يتكلّم، فبِفرنسيةٍ صبَغَتها لكْنةُ أهلُ مرسيليا؛ ذكرى إقامته الأولى في فرنسا -ثلاث سنوات أمضاها على متن عدد من السفن التابعة لشركة ديلستان وأولاده، أوّلاً بصفته مسافراً، ثمّ ربّاناً، ومضيفاً، قبل محاولته الانتحار بإطلاق رصاصة في القلب لم تصِبْه.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حدث ذلك عقب ولادة راڤيل بالضبط.

وبما أنّ هذا الأخير، كان قادراً، مثل كونراد على تجنّب أن يكون ثرثاراً، فقد اتّسم حديثهما بشيء من الجفاف وإن تخلّلَتْه لحظاتُ استرخاءٍ عبّر فيها الأوّل، بشيء من التحفّظ، عن حبّه لما يكتب الثاني من أدب، وحاول فيها الثاني أن يخفيَ بكلّ لباقة جهلَه بموسيقى الأوّل. في صحراء الحديث تلك، كان جان-أوبري يركض مثل رجل إطفاء تجاوزه الحدَث، من مساحة صمتٍ إلى أخرى، ساعياً لِمنحهما، بالتناوب، قليلاً من التنفسّ الاصطناعيّ. هكذا استُحضِرَت، على سطح الباخرة «فرانس»، اثنتان أو ثلاث من ذكريات ذلك اللقاء، ثمّ أنهت الصّافراتُ الحديثَ، وودّع الرجلان ساوثمبتون بعد أن وعد جان أوبري راڤيل بأن يرسل إليه نسخةً من كتاب» القرصان» الذي كان قد فرغ من ترجمته أيضاً، ليصدُرَ بالتّزامن مع «السّهم الذهبيّ».

حينَ عاد راڤيل إلى قُمرته المزدوجة لم يجد في نفسه الرغبة في تبديل ملابسه من أجل العَشاء. وبعد تفكير، ونظراً لما حلّ به من تعب، لم يرغب في الذّهاب إلى قاعة الطعام

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في ذلك المساء. وبعد أن طلب كأساً من شراب البيرنو، أخبر العاملين أنّه يفضّل أن يعدّ بنفسه قائمة طعامه، وقد أعجبه أن يستعيد في عرض البحر وجبّته المعتادة التي كان يتناولها في أرض مونفور لاموري: سمك الطراخور بالخلّ، وشريحة لحم كبيرة لم تنضج تماماً، وقطعة من جبن غرويير، وشيء من فاكهة الموسم، وكلّ ذلك مع دورقٍ من النبيذ الأبيض.

ثمّ إنّ الوقت كانَ باكراً، فلم تكن قد دقّت الساعة التاسعة والنصف حين انتهى من أكل هذا كلّه. في مونفور، كان لا يفكّر في النّوم بعد العشاء، فتكون هذه بداية الليل. وكان ضيقُ منزله يكثّف عدداً لا يحصى من الأنشطة الممكنة، وإن كانت لا تستغرق سوى لحظةٍ أو تقتصر على تفاهات. من الصالة إلى المطبخ، مروراً بالمكتبة والبيانو، وجولةٌ صغيرة أخيرة في الحديقة. كان لدى راڤيل دائماً ما يفعله، حتّى وإن لم يفعل شيئاً، إلى أن يضطّر أخيراً للذهاب إلى النوم. ولكن هنا، ما من تسلية، ولا من مهمّة، ولا ارتباط، ولا رغبة في الذهاب لتزجية الوقت في بارات الباخرة «فرانس» ولا في صالات قِمارها. وعلى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الرغم من أنّ مقصورته كانت أصغر بالطّبع من منزله في مونفور، إلّا أنّها كانت تُحدث فيه تأثيراً معكوساً مزدوجاً: فهي باتسّاعها المفرط، بطريقةٍ ما، تعطي لجسده، بالضبط، الحجمَ الذي تمنحك إيّاه غرفةٌ في مشفى: حيّزٌ أساسٌ لكنّه مبتور، حيث لا شيء آخر يمكن التشبّثُ به غير نفسك؛ فيشعر المرء أنّه في مَصحٍ عائم. فتح راڤيل الصّفحة الأولى من ترجمة كتاب كونراد التي أعطاه إيّاها جان أوبري وتأمّل العبارةَ الأولى: «الصفحات التالية مقتطفة من مخطوطٍ ضخمٍ موجَّه على ما يظهر إلى امرأة واحدة». لم تكن البداية سيّئة، غير أنّه لم تكن لديه رغبةٌ في القراءة ذلك المساء. لا بأس في أنْ يخالف عادته لمرّة واحدة. في الحقيقة، لقد غشيَه النّعاس.

ها هو يخلع ملابسه، ثمّ يفرد واحداً من ثيابه الليليّة الخمسة والعشرين. بعد أنْ تردّد أمام رفّ بيجاماته الخضراء آثر، أخيراً، واحدةً منها بلوْن الزمرّد على أخرى خضراء ضاربةٍ إلى الصُّفرة. وفي أثناء ذلك كان يتثاءب، ثمّ شعر بالخدر، وهو ما عزّز قناعته بقراره. أطفأ الأضواء ما عدا مصباح السرير، لنيّته، مع ذلك، أن يقرأ قليلاً

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قبل محاولة النوم. أخلد إلى السرير، وفتح الكتاب ثانية، وبدأ بالعبارة الثانية ثمّ ما تلاها: «يبدو أنّ المرأة كانت صديقةَ طفولةِ الكاتب، كان كلّ منهما قد اختفى عن ناظرَي الآخر وهما بعدُ طفلان، أو أكبر قليلاً، وانقضت السّنون». وبدأت عيناه تطرفان مع نهاية الجملة الرابعة، لم يعد يفهم شيئاً. سنستأنف هذا غداً. أطفأ راڤيل بحركة اعتيادية مصباح السّرير كما لو كان يألفُ موضعه منذ زمن بعيد، ثمّ لم تكد الساعة تبلغ العاشرة حتّى سقط عميقاً في النوم مثل حجر في بئر، وهو الذي كان دائماً يطارد النّوم حتّى الفجر، فينتهي به الأمر إلى اصطياد نعاسٍ رديء، مُستهلَكٍ، أو حتّى إلى الإخفاق في الوصول إليه.

نامَ، وفي اليوم التالي، وكما يحدث يوميّاً على متن البواخر في العالم منذ الأزل، يقدّمون لكَ عند الحادية عشرة طاسَ حساءٍ ساخن. وعلى كرسيّ الاسترخاء الطويل، ملتفاً ببطانيّة سميكةٍ، تشربُ وأنتَ تتأملّ المحيط حساءَك الساخن جدّاً، في جوٍّ دافئٍ على الرغم من تساقط الرّذاذ. إنّه لذيذٌ جدّاً. إنّ كراسي الاسترخاء الطويلة من هذا النوع، والتي سنراها لاحقاً في كلّ مكان، في الحدائق

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وعلى الشواطئ، وفي الشرفات وعلى السّطوح، لم نكن نراها آنذاك إلّا على متن البواخر عابرة الأطلسي، وقد احتفظت هذه الكراسي، بعد أن حطّت على اليابسة، من تلك البواخر باسمها، وذلك تعلّقاً بها: «ترانس».

كان كرسيُّ راڤيل مخطّطاً بالأزرق والأبيض، وسطحُ السفينة المخصّص للتنزّه مرُكّباً من خشبِ صنوبرِ جُزر الكناري الأصفر، الذي تتخلّله عروقٌ ضاربة للحُمرة. كان يتأمّل المحيط، مثل الآخرين دون أن يدخل بعفويّةٍ في علاقةٍ معهم. فهو وإنْ تخلّى عن بروده المتحفّظ أيام شبابه، إلّا أنّه لم يتحوّل، بذلك، إلى رجلٍ يُسارع لعناق الآخرين. إلى يمينه، كان هنالك زوجان تشير هيئتهما إلى أنّهما من أرباب الصّناعة، وإلى يساره امرأةٌ وحيدة، في سنّ الخامسة والثلاثين، تُنقّل بصَرها بين تأمّل المحيط وقراءة كتابٍ كادتْ بسببه أن تنخلعَ رقبةُ راڤيل، دون أن يشعُر أحد، وهو يحاول تبيّن عنوانه.

على ركبتيْه هو، استقرّ مفتوحاً المخطوط الذي تركه له جان أوبري، والذي يقدّمه مؤلّفه على أنّه قصّةٌ تتوسّط مُلاحظتين. كان راڤيل قد فرغ لتوّه من قراءة الملاحظة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الأولى، «*مثالٌ بارزٌ على السّطوة التي يمكن أن تكون لشخصيّةٍ قويّةٍ على شابٍّ صغير*». بعد ان أنهى حساءه، وحيْثُ أنّ الجوّ قد بدأ يبرد قليلاً، غادر راڤيل السّطح إلى قاعة القراءة، متوقّفاً في طريقه عند ديكور الدّرج الكبير، وهو من المرمر الأصفر وحجارة لونيل الرماديّة. كان نسخةً طِبق الأصل من درج فندق الكونت دو تولوز في رامبوييه. وبينما تفرّق المسافرون الآخرون، فمنهم من مضى إلى قاعة الرياضة أو إلى ملعب الاسكواش، ومنهم من توجّه إلى المسبح، أو الحمّام التركيّ الكهربائيّ أو إلى ملعب الجولف المصغّر، أو إلى سطيحة صعود الركاب، ليلعبَ الشفلبورد[1]، أو إلى قاعة التدخين ليجرّدَه المحتالون المحترفون من ماله، فضّل راڤيل مواصلة القراءة، بانتظار ساعة الغداء. حين حانت تلك اللحظة، وبدلاً من التوجّه إلى قاعة الطعام حيث حُجز له مكان، آثرَ أنْ يؤخّرَ تناول طعامه، كي يذْهب لاحقاً إلى المطعم الذي يمكن فيه للزّبون أن يختار. هناك، يكون المرء أكثر

(1) لعبة تقوم على دفع أقراص على لوح أملس باتّجاه هدف أو اثنين مرسومين عليه، ويقسّم اللوح إلى مناطق مرقّمة لحساب النقاط.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حريّةً بنفسه، فيأتي حين يريد، ليأكل ما يريد. وبما أنّه كان آخر يوم في السّنة، فقد خشيَ راڤيل أن تكون السّهرة طويلةً وعامرةً، وحيّةً، وصاخبةً، لذا اختار، تحسّباً لذلك، أن يتناول غداءً خفيفاً.

انقضت فترةُ العصر، في السينما أوّلاً، حيث عُرض فيلم «نابليون» الذي جاء ليعلن، مع فيلم «متروبوليس»، نهاية السّينما الصامتة. شاهد الفيلم للمرّة الثانية دونما انزعاج، مع أنّ ميْله لخفّة المزاج ونزوعه للاستمتاع بأقلّ شيء كانا سيجعلانه يفضّل أعمالاً أحدثَ وأقلّ جديّةً، مثل «عذراء النوم»، الذي كان قد سلّاه كثيراً العام الفائت، أو «باتويار وبقرته» أو حتّى «بيغورنو بنّاء السّقوف». ثمّ جهّز نفسه، بعد أن ذهب إلى قُمرته ليتمدّد قليلاً، فارتدى بذلته السّموكن المفضّلة، وذلك لكي يتناول العشاء، هذه المرّة في قاعة طعام الدّرجة الأولى. وهنا، لا يمكنه أن يتجنّب ربّان الباخرة، الحاضر على المائدة، بِلِحْيَتِهِ البيضاءِ القصيرة وزيِّه الرّسميّ المهيب. وخلال ذلك العشاء، وعلى نحو لا يقل حتميّة، سيدور الحديث عن الحرب العالمية الأولى، فقد كانت ذكرى الهُدنة على الأبواب، وهكذا شرع كلٌّ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يروي ذكرياته. وبما أن راڤيل وجد نفسه بالقرب من الزّوجين من أهل الصناعة اللّذين لمحهما ذلك الصباح على سطح السفينة، فقد روى لهما حربه هو.

في عام 1914، أراد حقّاً الانخراط في الحرب على الرغم من أنّه كان قد أُعفي من أيّ شكل من أشكال التجنيد الإلزاميّ، بعد أن أوضحوا له من دون مجاملة أنّهم يجدونه نحيلاً أكثر ممّا ينبغي. حين رجع إلى البيت خائبَ الأمل، خطرت له فكرةٌ ظنّها مقنعة -وقد رغب بقوّة، لا ندري لماذا، في أن يُعيّن قاذفَ قنابل من الطائرة- فعاد إلى مسؤولي التّجنيد ثانيةً مُحاجّاً بأنّ خفّة وزنه تحديداً تؤهله للالتحاق بسلاح الطيران. ومع أنّ ذلك بدا منطقيّاً، فإنّهم لم يأخذوا بحجّته وكان رفضهم قاطعاً. خفيفٌ أكثرُ ممّا ينبغي، كانوا يقولون، خفيفٌ أكثر ممّا ينبغي، ينقصك على الأقل كيلوان. ولكن بفعل إلحاحه الذي لم يتوقّف وبعد ثمانية أشهرٍ من الإجراءات، انتهى بهم الأمر بقبوله، رافعين أبصارهم نحو السماء، إذ لم يجدوا ما هو أفضل من ضمّه، بلا سخرية، سائقاً في قسم الفصائل السيّارة، شعبةِ العربات الثّقيلة، بالطبع. وهكذا شوهدتْ ذات

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يوم شاحنةٌ كبيرةٌ تهبط شارع الشّانزليزيه، يغالب مِقْوَدها الضَّخمَ شبحٌ صغيرٌ يرتدي معطفاً أزرقَ وأكبرَ ممّا ينبغي. جرذٌ يمتطي فيلاً.

كان في البدء قد عُيّن في المرآب الواقع في شارع فوجيرار، ثمّ أُرسل في السادس عشر من شهر مارس إلى الجبهة، غير بعيدٍ من فردان، مكلّفاً، كما هو الأمر دائماً، بقيادة آليّاتٍ ثقيلة. وبعد أن أصبح جنديّاً مُقاتلاً، يرتدي الخوذةَ والقناع وجلد الماعز، قادَ غيرَ مرّةٍ آليّته تحت وابلٍ من القذائف، حتّى لَيُخيّل للمرء أنّ فصيلَ مدفعيّةٍ يكره الموسيقى قد عرفه بشخصه، لا بل تعلّق به، بصورةٍ من الصّور. ويبدو أنّه ما من أحدٍ في أيّ قسمٍ –حتّى في قسم عربات الإسعاف– كان مُعرّضاً للقصفَ أكثر منه في الشعبة 75؛ شعبة المدافع 75 المحمولة على شاحنات مصفّحة. ذات يوم، تعطّل محرّك شاحنته، فوجدّ نفسه متروكاً لمصيره في البريّة، حيث أمضى أسبوعاً كاملاً، وحيداً تماماً مثل روبنسون كروزو. وقد اغتنم تلك الفرصة ليدوّن بعض أناشيد الطيور التي انتهت، وقدْ ملّت الحربَ، بالتّظاهر بأنْ لا شيء يحدث، فلم تعد تنقطع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عن الغناء عند أقلّ انفجار، ولم يعد يزعجها استمرارُ التّفجيرات بالقرب منها بلا أيّ انقطاع.

أما وقدْ لاقت هذه الحكاية نجاحاً كبيراً لدى المدعوّين، فبوسعنا التوقّف لحظةً عند مكوّنات وليمة العشاء تلك. كانت قائمة طعامٍ باذخةً على نحوٍ عاديٍّ تماماً -كافيار، سرطان البحر، طائر السّمان المصريّ، بيض الزقزاق الشاميّ، عنب الدفيئة، وكلّ ما يمكن أن يخطر ببال المرء من شراب. وبعد أن حلّق القبطان عالياً بفعل الكحول، أومأ بابتسامةٍ رقيقةٍ نحو راڤيل، رافقَتها حركةٌ خاطفةٌ بإصبعين. مع تلك الإشارة، ظهر عازفان بحلّةٍ بذيلٍ أسود وصدارٍ أبيض: أحدهما يمسك في يده كمنجة، والثاني يجلس خلف البيانو، فَخَيَّم الصّمت على قاعة الطعام.

وما إن تبادل الاثنان نظرةً صغيرةً وإيماءةً بالرأس حتّى شرعا في عزف الحركة الأولى من السّوناتا التي كان راڤيل قد انتهى من تأليفها تلك السنة، والتي أهداها لهيلين، وقدّمها هو نفسه مع أنيسكو على آلةِ الكمنجة، في قاعة إيرار كالعادة، في شهر مايو. لا يكفي القول إنّ راڤيل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان مُحرَجاً، لا بل ومنزعجاً قليلاً. في العادة، كان يخرج من الحفل ليدخّن سيجارة حين يأتي الدور لتقديم أحد أعماله، فلم يكن يحبّ أن يكون حاضراً عند عزف عملٍ من تأليفه. لكن هنا، لم يكن ثمّة مهرب، فقد أرادوا، بنيّةٍ طيّبة، تقديمَ مفاجأة صغيرة له. جاهد نفسه ليبتسم، بينما هو يتذمّر في سريرته، خاصّة وأنّه رأى أنّهما لم يجيدا عزف سوناتاته الجديدة. وحين انتهيا، بعد ربع ساعة، من عزف الحركة الأخيرة، «الحركة السرمديّة»[1]، طرحت مشكلة أخرى نفسَها: هل يصفّق أم لا؛ فأن يصفّق لعمله أمرٌ غير لائقٍ بقدر ما هو غير لائق أن لا يصفّق للعازفَين. متشكّكاً، نهض مصفّقاً وهو يشير بيديه بوضوحٍ صوب العازفَين، ثمّ صافحهما بحرارة قبل أن يؤديّ التحيّة معهما في اللحظة نفسها، وسط تهليل الحاضرين جميعاً في الدّرجة الأولى، على متن الباخرة» فرانس».

بعد العشاء وجمع التبرّعات الخيرية التقليدية لصالح المنشآت البحرية، وبعد أن تبرّع راڤيل كما يفعل عادةً، أمكن للحفلة أن تبدأ. استمّرت الحفلة العظيمة التي

(1) اسمها موضوع باللّاتينية: *perpetuum mobile*.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

امتدّت في كامل سطوح الباخرة العليا حتّى الهزيع الأخير من الليل، بل حتّى الصباح بالنسبة لبعض المشاركين، هذا بعد تبادل التهاني مطوّلاً عندما دقّت الساعة معلنةً انتصاف اللّيل وبداية العام الجديد؛ وقد تكرّرت تلك التهاني وبحرارة متزايدة حتّى خيوط النهار الأولى، نظراً لتنوّع البلدان التي جاء منها المسافرون، ولفرق التوقيت، وللحماس الذي أثارته فيهم الكحول. كانت البالوناتُ، والقصاصاتُ الورقيّة، وحبال الزينة، والأوراق الحلزونية الملوّنة تملأ القاعات وغرف التدخين والمقاهي والمظلّات والممرّات، تحرّكها، في كلّ رُكن، أنواعٌ مختلفة من الفرق الجاهزة لتلبية كلّ الأذواق. كانت فرقةُ موسيقى حجرةٍ تعزفُ بهدوءٍ، على مسافةٍ كافيةٍ من فرقةِ موسيقى راقصةٍ، ومغنيّةٍ فرنسيّة واقعيّة تتآخى مع رباعيٍّ موسيقيٍّ روسيّ، لكنّ راڤيل أمضى قسطاً كبيراً من ليلته بالقرب من فرقة جاز، مصغياً بانتباهٍ لهذا الفنّ الجديد والهشّ، وسط الأمريكان السّكارى.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

4

في صباح اليوم التالي، نهض متأخّراً، وتلكّأ في السّرير حتّى فاته شربُ الحساء على سطح الباخرة. ثمّ مضى، مُرتدياً ثياباً مريحةً من القطن الخفيف المُجعّد، في جولةٍ على سطح التنزّه الذي كاد يكون مُقفراً، حيث كان اثنان من البحّارة الفتْيان يجمعان، على صينيّتين، الطاسات المتناثرةَ بين أرجل كراسي الاسترخاء الطّويلة. كان لون البحر أخضرَ يكاد يسوّد.

على متن السفينة، سرعانَ ما يشعرُ المرءُ بأنّ الوقت طويل. كما أنّه سرعان ما يشعر بأنّ النهارات لا تبدو أطول ممّا هي عليه في اليابسة فحسب، بل هي حقّاً كذلك؛ فنظراً لتوزّع فارق التوقيت على زمن الرّحلة، فإنّ اليوم يبلغ بيسرٍ خمساً وعشرين ساعة. كما تساهم الحكمة في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

توفير التّسليات على متن الباخرة في مطّ ساعاته. والحقيقة أنّ المرء، في الدرجة الأولى، يمضي وقته، على وجه الخصوص، في تبديل ملابسه ثلاث مرّاتٍ في اليوم. تلك هي التّسلية الأساس. فيما عدا ذلك، فإنّ الجنس اللطيف يطيل الجلوس كثيراً في كراسي الاسترخاء الطويلة، بينما يلعب الجنس الخشن الورقَ -ويست، بريدج، بوكر-، إضافة إلى الضّامة والشّطرنج والدّومينو. وتُنظّم أيضاً بعض الألعاب الاجتماعية ومن بينها سباقات الخيول الخشبية التي تقترن بمراهنة بين طرفَين، كما تُجرى، كلَّ مساءٍ أيضاً عدا يوم الأحد -حيث تحظر التقاليدُ ذلك- مراهناتٌ بمبالغَ ضخمة على تحديد الموقع الصّحيح للباخرة. باختصار، كان من حسن حظّ راڤيل، الذي يجيد السباحة، أنْ كانَ هنالِكَ مسبحٌ. كان يخرج منه كلّ يوم إلى صالون الحلاقة، فيستغرقُ تماماً في قراءةٍ كاملة لجريدة «لاتلنتيك» اليوميّة، التي يُعدُّها مشْغلُ الطّباعة في الباخرة انطلاقاً من الأخبار التي ترِد من المحطات الساحليّة عبر الاتّصال اللّاسلكي.

كان لديه أيضاً إمكان استكشاف الباخرة. وعلى الرغم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من أنّ ركّاب الدّرجة الأولى لا يستطيعون الاحتكاك بركّاب الدّرجات الدّنيا، حيث الجوّ أكثر استرخاءً، فإن ما تبقّى من مساحةٍ كان من الاتّساع بحيث تستغرق زيارتها نهاراً كاملاً. لم يكن راڤيل يحْرم نفسه من ذلك. كان يذرع سطوح الباخرة، متوقّفاً عند السطح الصّغير بالقرب من منطقة الضبّاط، ثمّ يمضي لحظةً في مقرّ مذياع الباخرة، وبعدها في غرفة الحراسة، حيث يشرحون له كيفيّة التّعامل مع الأجهزة، ويهبط ليتأمل مُعجَباً الطوربينات في قاعة الماكينات؛ تلك المُعْدة الهائلة التي تعطي درجة حرارتها وضجيجها فكرةً عن جهنم- لكنّه دائماً ما أحبّ الميكانيك والمصانع، والمصاهر والفولاذ المُحْمرّ، فَتُرُوس الآلات تمنحه أفكاراً إيقاعيّةً أكثر ممّا تفعلُ الأمواج. بعد ذلك، كان بمقدوره الصّعودُ إلى تجهيزات الهياكل العُليا، ومتابعةُ القراءة في المقهى-الشرفة، والتسكّعُ بالقرب من صالة الرّياضة أو إلقاءُ نظرةٍ على ملعب كرة المضرب، على السطح المشمِس. مرّة واحدة فقط، إذ كان ضعيف الإيمان، زار الكنيسة الصغيرة، التي هي، كما نعرف، أوّلُ حيّز يُعدّ على الباخرة حين تُبنى وآخر مكانٍ يُلجأ إليه في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حالِ وقوع كارثة.

حسناً، جرت الأمورُ على هذا النحو لفترةٍ من الزّمن، وبما أنّ تلك الأيام تتشابه كلُّها، فمن غير المُجدي التوقّفُ عندها للأبد، فلنعبرْ إذن إلى الأيام الثلاثة التالية. قبل وصول الباخرة «فرانس» إلى نيويورك بيومَين، قدّم راڤيل، بناءً على طلبٍ عامّ، حفلاً مسائياً صغيراً. ولتنفيذ تلك المقطوعات القصيرة امتنع عن ارتداء زيّ عازفي البيانو الموحّد ذي الذيل الأسود، مفضّلاً لباساً مريحاً أكثر، بل هزليّا شيئاً ما. هكذا أدّى مقطوعته «استهلال»[1] التي كان قد ألّفها قبل خمسة عشر عاماً، مرتدياً قميصاً مخطّطاً وبذلةَ بمربّعات، مع ربطة عنقٍ حمراء. ثمّ عزف، يرافقه، بصعوبة، عازفٌ محليّ، أوّلَ سوناتا ألّفها للكمنجة والبيانو قبل ثلاثين عاماً. جالساً بخفّةٍ أسفل لوحة المفاتيح التي لم تكن يداه تعلوانها بل تلامسانها على عرضِها من أسفل إلى أعلى -وراحةُ يده أسفلَ المَلامس- كان يُنقّل أصابَعه المفرطةَ القِصَر، الكثيرةَ العُقد، العريضةَ قليلاً. ومع أنّها كانت عاجزة عن الانتقالات السريعة المفاجئة، إلّا أنّها

(1) "*Prélude*".

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كانت تضمّ إبهامَين فائقيّ القوة، كأنّهما لخنّاقٍ، يسهل ليُّهما، وهما مثبّتان أعلى راحتيه، وفوق ذلك بعيداً جدّاً عن بقيّة اليد، ويكادان يضاهيان سبّابتيه طولاً. لم تكن يداه حقّاً يدَيْ عازف بيانو، كما لم يكن يمتلك تِقْنيّةَ عزفٍ رفيعة، وكان ملحوظاً أنّه ليس متمرّساً، إذ كان يعزف بتشنّجٍ، مرتكباً أخطاء هيّنةً طوالَ الوقت.

إنّ ما يفسّر سوء تمكّنه من البيانو إلى هذا الحدّ هو الكسل الذي لم يبارحه منذ الطفولة، فهو الخفيف الوزْن لم يكن يرغب في أن يُتعب نفسه مع آلة ثقيلة جدّاً. كان يعلم أنّ عزفَ مقطوعةٍ، خصوصاً إذا كانت بطيئة، يقتضي بذل مجهودٍ جسديٍّ يفضِّلُ أن يُعفيَ نفسه منه. لذا وّجد أنّ من الأفضل تيسير الأمرِ على نفسه إلى حدٍّ أوْصله إلى تأليف المصاحبة الموسيقية لأغنية «رونسار، إلى روحه» لكي تُعزف باليد اليُسرى، لأنّه كان ينوي، هو نفسُه، التدخين باليمنى. باختصار، كان عزفه رديئاً، لكنْ، كان يعزف! كان يعرف أنّه نقيضُ العازف البارع، ولكنْ بما أنّ أحداً لم يكن يسمع شيئاً، فقد نجحَ الأمر.

عشيّةَ الوصول، وقبل ساعةٍ تناول الشاي، طرق قائدُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

السّفينة باب جناحه. جاء راڤيل، مرتدياً سترة داخلية مشجّرة، ليفتحَ الباب لضابط البحريّة، الذي كان يحمل، تحت ذراعه اليُسرى وقد انحنى بعض الشيء، مجلّداً ضخماً لونه أحمر داكنٌ وحوافّه مذهّبة. أدرك راڤيل من فوره ما هو: سجلّ السّفينة الذهبيّ، الذي رجاه الربّان بطريقة لا تخلو من احتفاليّة أن يخطّ فيه بضع كلمات، فأجابه: بكلّ سرور.

بعد أن وضع القائد المجلّد على منضدة، فتحه بعناية ثمّ قلّب صفحاته باحترام حتّى وصل إلى أوّل ورقةٍ بيضاء، فأشار بها إلى راڤيل. تراجع راڤيل إلى الوراء واستعرض الصفحاتِ السابقة، لكي يمنح نفسه الوقت لابتكار عبارة: بما أنّ «فرانس» في الخدمة منذ أبريل 1912، تاريخ تسلُّمِها، فقد امتلأت الصّفحات بمئات العبارات الاحتفائيّة التي لمح راڤيل أسفلها أسماءً معروفةً لديه إلى هذا الحدّ أو ذاك، وتنتمي إلى الأوساط الأكثر حضوراً في المجتمع الفرنسي -رجال السّياسة، والصِّناعة، والمال، والدين، والفنّ، والأدب، والسلطات الدستورية والقانونية. تصفّح السّجل بفضولٍ ظاهرٍ، قاصداً على

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وجه الخصوص أنْ يقرأ سريعاً العبارات المكتوبةَ، بحثاً عن واحدة قد تُلهمه، إذ لم يكن لديه أيّ فكرة عمّا يمكنه أن يخطّ فيه.

وفي تلك الأثناءِ أدهشتْهُ رؤية تنوّع الإمضاءات. لو كان لدى راڤيل ما يكفي من الوقت، لتسلّى بتفحص خطوطها وأساليبها ليستنتج منها شخصيّات أصحابها -وفقاً للطريقة القديمة التي حدّدها بالدي ثمّ طورها الأب ميشون، وكريبيو جامان، وآخرون. بعضهم اكتفى بأن يكتب ببساطة وعلى نحوٍ مقروءٍ اسمه الأوّل متبوعاً باسم العائلة، بخطٍّ تحته أو دون ذلك؛ وقد يأتي الخطّ أسفل التوقيع منفصلاً عن الاسم أحياناً، ومتّصلاً به عبر مدّ الحرف الأخير منه أحياناً أخرى. ويحدث أيضاً، بوازعٍ من تواضعٍ أو هَبّةٍ بساطةٍ مفاجئة، إن لم يكن بفائض كبرياء، أن لا تكون الحروفُ الأولى من الأسماء مدونةً بالحرف الكبير. كانت الإمضاءات من هذا النوع الذي يسهل فكّ مغاليقه قليلة، فالأغلبية كانت تتضمّن تجميلاً أسلوبيّاً لاسمِ العائلة، بهذا القدر أو ذاك من النجاح أو التعقيد، حيثُ استمتع أصحابها كما لو أنّهم وجدوا هنا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لمرّة واحدة في حياتهم فرصةً لِلَعب دور الفنّان، فجاءت التواقيعُ في أغلب الأحيان رادعةً لأيّ أملٍ في قراءتها، إذ تمثّلت في خطوط لا تنتهي حُلّيت بحلقاتٍ وزخارفَ وأشكالٍ حلزونيّةٍ، وخطوطٍ ذاهبةٍ وآيبةٍ وانعطافاتٍ في كلّ اتّجاه مثل متزلّجين على الجليد تعْتَعهم السّكر، كما زيّنتها فواصلُ وشرطات، حيثُ وصلَ تعقيدُها لا إلى حدّ استحالة فكّ شِفرة الأسماء التي يفترض أنّها تجسّدُها وحسب، بل إلى استحالة تحديد اتّجاه كتابتها، أو بأيٍّ حركةٍ بدأ صاحبها عمله الفنيّ الصغير حتّى بلغَ منتهاه. وفي حالة الإمضاءات التي يصعب كثيراً حلّ لغزها، خطّت يدٌ أسفلَها باحترام وبقلم الرّصاص اسمَ صانعها.

بدا لراڤيل أنّه أيّاً كانَ الحلُّ الذي اختير للتّوقيع، فلا بدّ أنّ ذلك كلّه قد استغرق وقتاً طويلاً ليُرسَم. أمّا هو فاكتفى بتحيّة سريعة ورصينة، بخطّه النزق الحادّ، أعقبَها اسمُه الأول واسم عائلته، مقروءين بوضوح تام، بدون خطٍّ تحتهما، وبالكاد مزيّنَين بسيقان عموديّة وممتدّة في حرفيهما الأولَين المكتوبين بالحرف التّاجيّ.

ما إنْ غادر قائدُ السّفينة، حتّى استغلّ راڤيل القلمَ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الذي ظلّ بين أصابعه في كتابة بعض الرسائل الموجزة، والتقليديّة بعض الشيء إلى الأصدقاء، دون أن يتعب نفسه كثيراً. يفيد في إحداها، وكانت موجّهةً إلى دولاج[1]، بأنّه لم يستغلّ جناحه الفخم للعمل إلا قليلاً. وفي رسالة أخرى إلى رولان مانويل[2]، يفترِضُ أنّه لم يسبق لأحدٍ أنْ قام برحلةٍ أجمل من رحلته في مثل هذا الفصل من السّنة. هذا علاوةً على رسالةٍ صغيرة إلى هيلين وأخرى إلى إدوار. أتمّ ذلك سريعاً، ثمّ بدّل ملابسه مرّة أخرى قبل أن يدسّ تلك الرسائل في مغلّفاتها ليوصلها إلى مكتب الاستعلامات، حيث يُجمع البريد ثمّ يُرسل في طائرة مائيّة تنطلق من سطح الباخرة الخلفيّ. وبما أنّ الرحلة كانت تقارب نهايتها، كان على رافيل أنْ يُعِدّ حقائبه قبل أن يملأ البيانات الجمركيّة.

وفي المساء، عند العشاء، سيجري ما هو معتاد في مناسبة كهذه: تبادلُ عناوين، وخططٌ للّقاء ثانيةً، وأنخابٌ

---

(1) Maurice Delage (1879–1961): موسيقيّ فرنسيّ من تلاميذ رافيل وأصدقائه.

(2) Rolland Manuel (1891–1966): مؤلّف وباحث موسيقيّ فرنسيّ، تلميذ رافيل وصديقه وكاتب سيرته.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

متكّررة. وبعد ذلك يمضي الجميع إلى النوم عدا أولئك الذين سيفضلّون البقاء إلى آخر لحظة في البار أو الخروج عند الفجر إلى سطح الباخرة ليتنشّقوا أولى روائح الأرض الأميركية، وليتأملّوا عمّا قريب إبحار الربّان صوبَ فنار أمبروز لايْت، قبل أن يبرز للعيان تمثال الحريّة، ويبدأَ صعودُ بحيرة هدسون. غير أنّ راڤيل، وقد عاوده الأرق، أغلق كتاب «السّهم الذهبي» بعد أن قرأ مرّتين أو ثلاثاً آخر جملة منه: «ولكنْ أيّ شيء آخر كان بوسعه أن يفعل، في الحقيقة؟»

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

5

في نيويورك، في صباح الرابع من يناير، انتظرتْ لجنةُ استقبالٍ راڤيل على رصيف الميناء. كانت السّماء الصّافية تكتنفُ شمساً باردة. وكان هناك عددٌ من ممثّلي الشركات الموسيقيّة، ورؤساء الجمعيّات، وممثّلان للبلدية، وحشدٌ من المصوّرين الصحفيّين يرفعون ومّاضات ضخمة، وصحفيّون يحملون دفاتر ملاحظات، ويعلّقون بطاقات هويّتهم الصحفيّة أسفل أشرطة قبّعاتهم، ورسّامو كاريكايتر، ومصّورون سينمائيّون. من أعلى السطح الصّغير، لم يعرف راڤيل في البداية أحداً من كلّ أولئك النّاس، ثمّ ما لبث أن لمح شميتز، الذي كان قد أدّى عمله «تريو»[1] قبل عشر سنوات –وقد تعرّف راڤيل على هيلين

(1) *Trio*: مقطوعة لثلاث آلات (البيانو والكمنجة والتشيلو) في سلّم لا الكبير، كتبها راڤيل في 1914.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في تلك المناسبة-، شميتز الرائع الذي تكفّل بتنظيم الجولة الأميركية كلّها. وحين عرف، ليس بعيداً عن شميتز، بوليت ناتانسون ابتسم لهما ابتسامة عريضة، ولوّح بيده، ثمّ انحنى متّكئاً على الدرابزين، حين لم يعد قادراً على الاحتمال، وصاح: سَتَريان ربطاتِ العنقِ المُذهلةِ التي جلبتُها!

ما إنْ نزل راڤيل من السّفينة «فرانس»، حتّى هرعوا إليه وسط نظرات الحسد من مُسافري الدرجة الأولى الآخرين الذين ما كان ينتظرهم أحدٌ سوى عائلاتهم، في أحسن الأحوال. صافحوه بطريقة بَدتْ له خاليةً من التكلُّف. ثمّ أُلقيت ثلاثُ خطبٍ موجزةٍ لم يَفهم منها شيئاً، لأنّه لم يكن يعرف لغةً أجنبيةً غير الباسكيّة. فهو وإنْ كان قادراً بمشقّة على السؤال عن طريقه بالإنجليزيّة إلّا أنّه على كلّ حال لن يفهم الجواب أبداً -لكن منذ اللّحظة، لن يكون هذا الوضع وارداً؛ فهم لا يفارقونه، ولن يفارقوه خلال الأشهر الأربعة القادمة، بل إنّهم في بعض الأحيان لن يدَعوه يخلو بنفسه كفايةً. لقد اصطحبوه إلى سيّارة بيرس آرو طويلة، سوداء، مكشوفة السّقف، لم يسبق قطّ أن رأى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مثلها في الأفلام، نقلتْه إلى فندق لانغدون، حيث حُجزت له شقّةٌ في الطّابق الثامن.

أمضى راڤيل يومه الأوّل في مقابلاتٍ صحفية ولقاءاتٍ مختلفة، مصحوباً طوال الوقت بمدير أعماله وبعازف الكمنجة الأوّل في فرقة بوسطن السيمفونية الذي قام بدوْر المترجم، فيما لم يتوقّف سيلُ سلال الورد والفاكهة إلى فندق لانغدون، وتراكمت الباقاتُ حتّى لم يعد هناك ما يكفي من المزهريات لاحتوائها. أمّا الأيام الأربعة التالية، فقد أمضى راڤيل جُلَّها في سّيارات الأجرة، مُنطلقاً إلى كلّ ضربٍ من المواعيد والبروفات والدّعوات وحفلات الاستقبال. كانت واحدةٌ من هذه الحفلات مُرهِقةً على نحو خاصّ، حيث توافد عليه ثلاثمائة شخصٍ مجهول، في بيت زوجة المخترع إديسون، متحدّثين إليه بالانجليزية. أمّا حفل نيويورك، فقد كان ذروة المجد، حيث وقف ثلاثة آلاف وخمسمائة شخص ليصفّقوا له لمدّة نصف ساعة، ويرموه بكثيرٍ من الورود الجديدة والقبلات، صارخين ومطلقين الصّفير باهتياج، كما يفعلون عادةً في هذا البلد حين يتملّكهم الرّضا، حتّى إنهم اضطرّوه للصعود إلى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

خشبة المسرح، الأمر الذي لا يحبّذه كثيراً، من حيث المبدأ. وفي المساء، عاد راڤيل إلى الفندق منهكاً، في وقت متأخّرٍ جدّاً، بعد جولةٍ في المراقص، وصالات السّينما العملاقة، ومسارح السّود.

ثمّ بدأت جولته عبر الولايات المتّحدة. بعد حفل كامبردج الموسيقيّ الذي أعقبه حفلُ استقبال، كان عليه أن يسرع، مُرتدياً بذلته السّموكن، لِيَلحقَ بالقطار المغادر إلى مدينة بوسطن، حيث نزل في فندق كوبلاي بلازا، الذي حقّق حفله الموسيقيّ فيه نجاحاً كبيراً. مرّةً أخرى صافح ثلاثمائة يدٍ، وتلّقى عبارات تؤكّد على محبّته، وأحياناً على أنّه يبدو إنجليزياً، هذا قبل أن يجّروه إلى نادٍ ليليٍّ أو إلى أحد مسارح خيال الظّل. حدثَ الأمر ذاته حين عاد إلى نيويورك؛ إلى قاعة كارنيجي، ثمّ تواصلت الاحتفالات المخمليّة على شَرَفه مع بارتوك، وفاريز، وغيرشوين، في منزل عائلةٍ راقيةٍ في ماديسون أفينيو، طلبت منه أيضاً أن يعزف لها شيئاً. فعزَف، بالطبع، وسيعزف بلا توقّف في قاعات الحفلات الموسيقية، والأمسيات الخاصّة، حيث سيضطرّ أحياناً، وبشيء من الرهبة، إلى قيادة العازفين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ولن يتوقّف ذلك.

لقي راڤيل الاستقبال ذاته في شيكاغو، تحت الثّلج، إلّا أنّه رفضَ في اللّحظة الأخيرة أن يعزف، حين لم يعثر على الحقيبة التي تحتوي على حذائه اللّمّاع، الذي يرفض الظّهور من دونه، فليس من الوارد أن يرتدي حذاءً عاديّاً مع زيّه كقائد أوركسترا. هُرعت إحدى المغنيّات إلى محطة سيّارات الأجرة لاستعادة حقيبته من مستودع الأمانات الآليّ، فبدأ الحفل متأخّراً نصف ساعة، لكنّ ذلك لم يغيّر من الأمر شيئاً: احتفاء جديد أعقبته تحيّةٌ صاخبةٌ أدّاها عازفو الآلات النحاسيّة في الفرقة حين عاد راڤيل للظهور لتحيّة الجمهور في نهاية الحفل. والاستقبال ذاته في كليفلاند؛ احتفاءٌ صاخبٌ مرّةً أخرى، مع ثلاثة آلاف وخمسمائة شخص جديد وقفوا لِتحيّته. كان يلقى الاستقبال الرائع ذاته في كلّ مكان. بدت الأمور جيّدةً على الأرجح، عدا أمرٍ صغيرٍ واحد: الأكل السّيئ، إلى درجة أنّ راڤيل أنهى السّهرة مبكّراً في شيكاغو، حيث كان مدعوّاً إلى العشاء عند سيّدة ملياردية، عائداً إلى الفندق بسرعة، في البرد القارس والريح التي يُضرَب بها المثل، ليطلبَ طبقاً من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شرائح اللّحم. كان هنالك أمر صغير آخر: عدم النّوم. فالحياة التي جعلوه يعيشها لم تُتح له القليل من النّوم إلّا في القطار، وليس دائماً.

لِحسن الحظّ، لم تكن تنقصه القطارات، كما زاد في حظّه السّعيد أنّه سيذرع، في عرباتِ قطار فاخرةٍ، قارةً أميركا الشماليّة، في كلّ الاتجاهات؛ فقد أعدّوا له مساراً لا يُصدّق. كان مساراً مربكاً بقدر ما هو مربكٌ مسار ذبابةٍ في الهواء، جعله يمضي من المناطق الجليديّة إلى الاستوائيّة، في رحلاتِ ذهابٍ وعودةٍ مجنونة، ومحطّات توقّفٍ غير أكيدة، وتحويلاتٍ غير متوقّعة، عبر المدن الخمس والعشرين التي مرّ بها.

لقد واصلت قطاراتٌ تحمل الأسماء: زيفير، هياواثا، أمباير ستيت إكسبرس، صن سيت ليمتد أو سانتا في دي لوكس، واصلت، على طريقتها، ضمان الرفاهيّة التي وجدها على متن الباخرة «فرانس». كانت تلك القطارات، برفاهيّتها التي للبواخر عابرة البحار، فنادقَ باذخةً تتكوّن من خمس عشرة عربةً تزن الواحدةُ ثمانين طنّاً، زُوِّدَت مقدّمةُ قاطرتها المرمّمة، التي لها هيئةُ صاروخٍ، بمصباحٍ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مركزيٍّ هائل. وتقدّم العربات فيها كلّ الخدمات الممكنة: مكاتب لرجال الأعمال، مرقص وصالة سينما، صالونات للحلاقة وللعناية بالأظافر، استشارات خبيراتِ تجميلٍ، قاعة حفلاتٍ موسيقية تضمّ آلات الأرغن من أجل قدّاس الأحد، مكتبة، وأكثر من بار. أمّا المقصوراتُ التي كانت تغصّ بالخشب النّفيس والسجّاد والزّجاج المعشّق والستائر، فقد جُهّزت بأسرّة مُظلَّلَة وبأحواض حمّامٍ مزودة، حسب الاختيار، بالماء العذب أو بماء البحر. وفي ذيل القطار، عربة بانوراميّة تنفتح على إطلالةٍ أُعدَّت كشُرفةٍ تعلوها قبّة.

وصل راڤيل إلى كاليفورنيا، على متن «سان فرانسيسكو أوفرلاند»، في نهاية يناير. ارتاح قليلاً بعض الوقت، كان برنامجه أقلّ ازدحاماً، حيث هدأت الأمور نسبيّاً. فكان إنْ لم يحاول النّوم تحت مظلّة سريره، يمضي وقته في نادي القطار. ومن سان فرانسيسكو انطلق إلى لوس أنجلوس. سَمَحت له عذوبة الهواء بأن يستقرّ في الشرفة الخلفيّة، حيث لديه الوقت كلّه ليتأمّل منظر الطبيعة. في ظلّ الأشجار الكبيرة التي تبدو كأنّها أشجار بلوّطٍ فيما هي

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في الحقيقة أشجار البهشيّة، كان القطار يخترق غابات من الأوكالبتوس، متلوّياً بين جبال يتنوّع شكلها، بين صخريّة صفراءَ وخضراءَ ناضرة. وعلى مشارف لوس أنجلوس، اجتاز القطارُ ضواحيَ سكنيّةً متناثرة، حيثُ كلّ بيت أُقيم هنا، بين مسافة وأخرى، يمثّل حكاية، وأحياناً حكايةً مع بِركة سباحة؛ إنّه لا يروي حكايةً، بل هو حكاية في حدّ ذاته. أمّا الدّكاكين القليلةُ التي نلمحها، فهي دمىً صغيرة مُتعدّدةُ الألوان، من ذلك النوع الذي يحبّه راڤيل.

في لوس أنجلوس، قدّم حفلاً في قاعة فندق بالتيمور، الذي أرسل منه إلى أخيه إدوار بطاقةً بريديّةً تُمثّل ناطحة السّحاب تلك، وقد ثقبَها بدبّوس، وكتب على ظهرها مُوضّحاً أنّ وجْه البطاقة يمثّل الفندق، والثقبَ يمثّل غرفته. الأمور هنا أفضل بكثير ممّا هي في شيكاغو، ففي لوس أنجلوس يسودُ الصّيفُ في أوج الشتاء. إنّها مدينةٌ غارقة في الورْد، الذي ينبت عندنا في الدّفيئات؛ لكنّه هنا يحفّ بالشوارع تحت درجات حرارة تُقارب المائة فهرنهايت، كما أنّ أشجار النّخل العظيمةَ هي في موطنها هنا. وبما أنّ راڤيل كان هناك، على بعد ساعةٍ من هوليود

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فقد انتقل إليها، في سيارةٍ من طراز ستوز بيركات، مكشوفةِ السّقف هي الأخرى ولكن هذه المرّة بهيكلٍ باللّونين الأحمر العقيقيّ والبنفسجيّ، وبإطاراتٍ جوانبُها بيضاءُ اللّون، وقام بجولة التقى خلالها ببعض النجوم: دوغلاس فيربانكس الذي يتحدّث الفرنسية، وشارلي شابلن الذي لا يتحدّثها. لقد تسلّى كثيراً مع تلك الرّفقة، محافظاً على الدّوام وبشكلٍ مدهشٍ على مزاجٍ رائقٍ، مع أنّ النجاح كان مُتعِباً والأكلَ رديئاً كالعادة.

على متن قطار «ساذرن باسيفيك» قادم من بيرث، توّجه راڤيل أوّلاً إلى سياتل مارّاً ببورتلاند وفانكوفر، ثمّ غادر على متن قطار «يونيون باسيفيك سيستمْ» مدينة دنفر، حيث مناجمُ الذهب والفضّة، والشمس، والهواء النقيّ، والعلوّ، إلى مينيابولس عن طريق كانساس سيتي. وقد خشي، إذ بدت السماء تتلّبد بالغيوم، أن يواجه ثانيةً الأسبوع القادم هواء نيويورك القارس.

لم يكن الجوّ فيها بالبرودة التي توقّعها حين احتفل بعيد ميلاده الثالث والخمسين في السابع من مارس، مع عددٍ غير قليلٍ من الأشخاص من بينهم غيرشوين، الذي أراد

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

راڤيل لقاءه ثانيةً ليسمَعَه يعزف «الرّجل الذي أهوى»[1]. بالطبع، استجاب الآخر، مسارعاً بعد العشاء إلى أن يطلب من راڤيل أن يعطيه دروساً في التأليف الموسيقيّ؛ لكنّه رفض رفضاً قاطعاً، مبيّناً له أنّه قد يفقد عفوية ألحانه، ومن أجل ماذا، أنا أسألك؟ فقط لتقدّم نسخة رديئة من راڤيل. كما أنّه لا يحبّ أن يتّخذ تلاميذَ. أمّا غيرشوين، فيبدو أنّه لم يكتفِ بنجاحه العالميّ، فهو يطمح إلى ما هو أعلى، لكنْ تعوزُه القدرات، ولن نثقل كاهله بمنحه إيّاها. باختصار، تهرّب راڤيل من الأمر. كان مُنزعجاً إلى حدٍّ بعيد؛ فعلى الرّغم من أنّهم اعتنوا -وقد بدأوا يعرفونه- بتجهيز عشاءٍ من شأنه أن يعجبَه، خصوصاً اللّحم الأحمر الذي يحبّذه غير ناضجٍ، قدْ قُدّم له، كما يحدث دائماً هنا، ناضجاً أكثر ممّا ينبغي بكثير.

بعدها بيومين، حين انطلق راڤيل إلى الجنوب على متن قطار «كريسنت ليمِتد»، وجد نفسه وسط حرارة صيفٍ جميل، مع أنّ الفصل ربيع، حتّى إنّه لم يستطع البقاء في مقصورته إلّا بالقميص من دون سترة، أمام المروحة التي

(1) *The man I love*.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

جعلها تدور بسرعتها القصوى. كان الجوّ أقلَّ حرارةً في الشُّرفة الخلفيّة، حيث تكاسَل راڤيل طيلة النهار، ثمّ جلس بعد العشاء في النادي ليكتبَ بعض الرسائل شارحاً فيها تفاصيل مسار رحلته المعقّد: سيذهب أوّلاً في جولةٍ إلى نيو أورليانز، حيث سيأكل سمكاً يُطبخ في أكياسٍ ورقيةٍ ويشرب نبيذاً فرنسيّاً على الرغم من تحريمه -ولكن لو أنّهم يعرفون حقّاً معنى التحريم! عند الساعة الحادية عشرة، حين بدأ النادي يخلو من المرتادين، عاد إلى مقصورته في الطرف الآخر من القطار.

ومع أنّ الجوّ في نيويورك تحوّل إلى الدّفء مبكّراً، فإنّ إزهار النّبات فيها كان أقلّ منه في نيو أورليانز، التي لم يُمضِ فيها سوى نصف نهارٍ، قبل أن يعود إلى هوستون ليقّدم حفلَين موسيقيَّين. خلال البروفات، أثار انتباه العازفين بقوّة، بتنسيقه على نحو مختلف، بين عشيّة وضحاها، لون قميصه ولون حمّالاته: ورديّة تارةً وزرقاء تارةً أخرى. سار كلّ شيْءٍ سيراً حسناً هذه المرّة أيضاً، أو هذا ما بدا له على الأقلّ، مع أنّه لم يسأل نفسه إنْ كان الاستقبال الذي حظيَ به يعكس بدقّةٍ الشعورَ بالنجاح الذي يجتاحه منذ أربعة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أشهر؛ ذاكّ الشّعور الذي جعله يبدو لا مبالياً إلى حدٍّ ما، وأكثرَ استرخاءً في طريقة عزْفه الضعيفة أصلاً. كان يظنّ أنّ ذلك لا يظهرُ للعيان، بل إنّه لم يفكّر فيه، غير أنّه قد ظهر، من دون أن يعرف، ولو عرف بذلك لما اكترث.

قبل الحفل الثّاني، أعطى محاضرةً في الكاتدرائية الاسكتلندية، بيّن فيها أنّ تأليف الموسيقى عنده يحتاج، عموماً، إلى فترة مخاض طويلة ينجح خلالها بالتدريج، ولكن بدقّة متزايدة، في رؤية مسار العمل القادم وشكله، وقد ينشغل به على هذا النّحو لسنواتٍ دون أن يكتب نوتة واحدة، ثمّ يُنجز الكتابة بسرعة، غير أنّه يظلّ هناك مزيد من العمل للتخلّص من كلّ ما هو زائد، قبل الوصول، ما أمكن، إلى الوضوح النهائيّ المنشود.

بعدها، استقلّ راڤيل سيّارةً ومضى لزيارة خليج المكسيك قبل أن ينتقل إلى غراند كانيون حيث أمضى أسبوعاً مستقرّاً في فونيكس، ثمّ غادر على متن قطار كاليفورنيا ليمتد إلى بافالو، في الطّرف الآخر من القارّة. ثمّ، ولنختصر، عاد إلى نيويورك وبعدها إلى مونتريال ومن هناك مضى لتقديم حفلات أخرى في تورتنو، وميلووكي،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وديترويت، ثمّ قفزةٌ أخيرة إلى بوسطن، ومروُّر أخير بنيويورك، التي أبحَر منها إلى باريس عند منتصف الليل.

وصل راڤيل عائداً إلى لوهاڤر في 27 أبريل. كان بصحّةٍ جيّدة، وعلى الأخصّ، كانت حقيبته الزّرقاء الصّغيرة التي فرغت من سجائر الغولواز تحتوي في تلك اللحظة على سبعة وعشرين ألف دولار. على الرصيف، كانت العصابة كلّها حاضرةً، تترقّب عودته: إدوار، وعائلة دولاج، وكذلك هيلين، بالطّبع، دائماً بصحبة مارسيل جيرار ومادلين غري. انحنوا أمامه مقدّمين له باقةَ وردٍ بطوق من ورق الدنتيلا ذي حاشية مزخرفة. جَذِلاً، وجد راڤيل أنّ من الطبيعيّ أنّهم جاؤوا من لوهاڤر لاستقباله ولم يخطرْ له للحظةٍ أن يشكرَهم على ذلك، مُكتفياً فقط بالقول: وددتُ لو أنّكم لم تأتوا!

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

6

عند العودة إلى مونفور لاموري، كان الجوّ ربيعاً فرنسيّاً، تقليدياً ومعتدلاً، يختلف عن غرابة أحوال الطقس الأميركية. إذ استقبلته، حتّى قبل أن يفتح باب بيته، أسرابُ طيور كانت تُجوّد غناءها فوق رأسه. من أبي الحنّاء إلى القرقف، كانت عصافير صغيرةٌ كثيرة تبحّ أصواتها، بين الأشجار، صادحة بأناشيدها التي يعرفها راڤيل كما يعرف راحة يده، كلّ ذلك تحت رقابة لصيقة من قِطّيه السياميَّين.

أمّا البيت، فعبثاً كان يطلّ إطلالة رائعة على الوادي، كان شكله غريباً، على هيئة أنف حادٍّ يُشبه قطعة جبن مثلّثة، بحيث تبدو قمّته مختلفةً حسب موقع النّاظر إليه، من الشارع أو الحديقة. ويتألّف البيْت من خمس غرف

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أو ستّ، ضيّقة كالأعشاش، يربط بينها درجٌ رفيعٌ وممرّ لا يتسّع لأكثر من شخص واحد. وبما أنّ راڤيل نفسه لم يكن طويل القامة، فإننا قد نَسْخَر من رغْبته في أن يسكن على «قدّه»، لكنّنا سنكون مخطئين أوّلاً، لأنّه عثر على ما سمحت به إمكانيّاتُه الماليّة المحدودة. فهو لم يكن غنيّاً، بل كان عليه دائماً أن يحسب تكاليف الأمور جيّداً، وما كان ليستطيع شراء هذا البيت لولا التّركة البسيطة التي وَرثها عن عمّه السويسريّ، ثمّ إنّ الإطلالة هي تحديداً ما جعله يحسم قراره؛ الإطلالة على الوادي الذي نكتشفه من الشرفة: أفق يكادُ يكون مستقيماً تحت سماواتٍ متقلّبة، وموجات أفقيّة طويلة من التّلال المتعاقبة، وتموّجات من الأعشاب والغابات، وحزم من الأشجار المنتظمة، وأجزاء من الأسْيِجة.

كان المسكنُ الصّغير نفسه يغصّ بالأشياء الصّغيرة: مُنمناتٍ من كلّ نوع، وتماثيلَ صغيرةٍ، وتُحَفٍ، وصناديق موسيقى، ودميّ بزنبركات: صينيٌّ يُخرج لسانه عند الطّلب، وعندليبٌ ميكانيكيٌّ ضخمٌ بحجم كرة زجاجيّة، يرفرف بجناحيه مغنيّاً حين نشاء، وقاربٌ شراعيٌّ يتمايلُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حسب الرّغبة فوق أمواجٍ كرتونيّة، وزخارفُ بلورّيةٌ ودمىً في أباريق[1]، وأزهارُ خزامى من الزّجاج المصهور، وورودٌ ببتلاتٍ ذات مفاصل، وصناديق من البلّور النّمساويّ الملوّن، ونموذجٌ مصغّر لأريكةٍ عثمانيّة من الخزف المسنّن. وعلاوةً على ذلك، كان البيت مجهّزاً بكلّ وسائل الرّاحة الحديثة: مكنسةٌ كهربائيّة، وفونوغراف، وهاتفٌ، ومذياع.

بعد تفقّد المنزل وفتح ستائر الصالون التي من قماش التّفْتا، وتلك التي من الحرير الأخضر في غرفة السّفرة، وبعد إفراغ خزانة الثياب ثمّ إعادة ترتيبها، تبخّرت سريعاً متعةُ الشّعور بالعودة إلى البيت. إذ سرعان ما يشعر المرء بأنّه بلا قوّة، لا يدري ماذا يفعل بنفسه، حيث فرطُ التّعب من السّفر أكبر من أن يجعله يفكّر في أن يستريح، ويحول التوتّر دون ذلك. وعلى كلّ حال، ليست الخامسةُ والنّصف عصراً باللحظة المناسبة لمحاولة النوم، لن ينجح في ذلك، وإنْ نجح لكان ذلك أسوأ. كما أنّه ليس من

(1) دمى تغطس في سائلٍ داخلَ أباريق أو أوعية زجاجيّة مغلقة، تعلو وتهبط حسب ضغط هذا السائل.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الوارد أن يفتح كتاباً أو يجلسَ خلف البيانو، إنّه لا يملك القدْر الكافي من التركيز للقيام بذلك. ولا شيء ينْبغي توضيبُه في البيت، لا حاجياتٍ ينبغي أن يذهب إلى السوق لشرائها؛ فاستباقاً لعوْدة سيّدها، كانت السيدة ريفلو قد رتّبت البيت جيّداً، وأعادت تشغيل التّدفئة وأعدّت ما يلزمُ من طعامٍ في المطبخ. بالطبع، كان هنالك كلّ ما خصّته به الصحافة الأميركيّة من مقالاتٍ خلال الشهور الأخيرة، كانوا قد اقتطعوها له، فاحتفظ بها من دون أن يفهم ما تقول. جَمعها كيفما اتّفق في ألبوم، لكنّه أتمّ ذلك بسرعة. بقي إمكان القيام بجولةٍ في الحديقة، وهي فضاءٌ مثلّث الجوانب، غزيرُ العشب، مقوّسٌ كرافعة النّهدين. لكنّ راڤيل جاهدَ عبثاً في ذلك اليوم للبقاء محافظاً على انتباهه المعتاد في تلك الحديقة، فهو باتَ لا يكاد يراها، ولا يكاد يهتمّ بالأعمال التي نفّذها البستانيّ في غيابه. لكأنّه بدأ يشعر بالضجر.

يعرف راڤيل الضجر جيّداً، فهو حين يقترن بالخمول، يمكن أن يدفَعه إلى ممارسة لعبة الخيْط والبكَرة لساعاتٍ، أو مراقبة نموّ أظافره، أو صنع أطباقٍ من وَرق أو تشكيل

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بطٌّ من فُتات الخبز، أو جردِ مُقتنياته من الأسطوانات الموسيقيّة، لا بل وتصنيفِها؛ مجموعته تلك التي تبدأ بألبينيث وتنتهي بفيبر، من دون المرور ببتهوفن، وإنْ كانت لا تستثني فانسان سكوتو، ولا نويل نويل أو جان ترانشان. على كلّ حال، إنّه لا يستمع إلى هذه الاسطوانات إلّا نادراً. وحين يقترن الضّجر بغيابِ أيّ مشروع، فإنّه غالباً ما تُرافقهُ نوباتٌ من الإحباط، والتشاؤم والغمّ، تجعله في تلك اللحظات يلوم والديْه بمرارةٍ على أنّهما لم يختارا له العمل في مجال الأغذية. لكنّ ضجر تلك اللحظات، وقد خلا أكثر من أيّ وقت مضى، من أيّ مشروع، بدا ملموساً وضاغطاً أكثر من المعتاد؛ إنّه كسلٌ مرَضيٌّ، انفعاليّ، قلقٌ؛ يخنقه فيه الشعورُ بالوحدة على نحو أشدّ إيلاماً ممّا تفعل ربطة عنقه المنقّطة. لا أرى إلّا حلّاً واحداً: الاتّصال بزُغيب[1]؟ على الرقم 56 في مونفور. عسى أن يكون موجوداً.

على الهاتف، هلّلوليا! زغيب موجود. سَرّهما تبادلُ الكلام وسماع كلّ منهما الآخر. وسيلتقيان، بالطبع.

(1) كاتب مسرحي مغمور من أصول مصريّة. كان صديقاً وجاراً لراڤيل وكان يتردّد إليه في بيته بانتظام في سنواته الأخيرة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ولكن لِمَ لا يكون على الفور؟ بعد خمس دقائق، التقيا على رصيفَ أحد المقاهي، بالقرب من الكنيسة، أمام زجاجة فرموت كاسيس[1]. روى راڤيل رحلة أميركا للآخر الذي كان يتحرّق شوقاً لذلك. نحن لا نعرف ما يفعل جاك دو زُغيب. يبدو أنّه يكتب، لكنّنا لا ندري أبداً ماذا يكتب. إنّه رجل ذو شعر أسود لامع، وبشرةٍ كامدة، أطولُ قليلاً من راڤيل لكنّه أقوى منه بنيةً، وهو مثْلُه شديدُ العناية بهنْدامه. كانتْ فضيلةُ العلاقة مع زغيب أنّه يكاد لا يفقه أيّ شيء في الموسيقى، وهكذا كان يمكن النقاش معه في أمورٍ أخرى. ولكن بما أنّه لم يكن يطلب، في ما يخصّ الموسيقى، إلاّ أن يثّقف نفسه، فقد كان في وسع راڤيل الحديث بحرّية أكبر، كما حدث حين سأله زغيب من يكون شوبان، في الحقيقة؟ فأجابه راڤيل وهو يسحق عقب سيجارته، الأمر بسيط جدّاً، إنّه أعظم الطّليان[2]. وبما أنّ وقت شرب الفرموت

(1) نبيذ أبيض معطّر مع مشروب الكشمش.

(2) في إجابة راڤيل مزاح مقصود، فمن المعلوم أنّ كبير الموسيقيّين الرومنطيقيّين فريديرك شوبان (1810–1849) كان بولنديّاً من أصل فرنسيّ وأنّه، بعدما تعلّم الموسيقى في وارشو، هاجر إلى فرنسا وأمضى فيها أغلب سنيّ حياته.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كاسيس لم يكن كافياً للانتهاء من قصّة أميركا، فقد دعاه زغيب إلى العشاء، ثمّ دفعه الشّعور بالتّعب النّاجم عن فرْق التوقيت، الظاهرةِ التي لم يكن قد عرفها حتّى تلك اللحظة، إلى العودة إلى البيت حوالى السّاعة الحادية عشرة.

حين عاد، نزل على غير عادته إلى غرفة نومه مباشرةً، عوضاً عن التجوال في البيت حتّى آخر اللّيل، فكان النعاس قد غلبَه. لكنّ الشعور بالنعاس، كما نعلم، لا يعني العثورَ عليه بالضرورة، فالتعب المفرطُ قد يمنعُ المرءَ من النّوم. مع ذلك، أطفأ النّور، لكنّه عاد لإشعاله بعد ربع ساعة، وتناول كتاباً فتحه دون جدوى، فأطفأ النور ثانيةً، ثمّ أشعله غير مرّة بعد أن تقلّب في سريره في كلّ اتجاه. لقد بتنا نعرف ذلك. على كلّ حال، لم يسبق قطّ أن نام جيّداً، فهو يتأخّر في معظم الأحيان في الإخلاد إلى السرير، دون أن يكون النّعاس في انتظاره، وما إن يدركه، حتّى يستيقظَ على وجه السّرعة. ليس ذلك بالأمر الجديد، وهو ما دفعه لمحاولة تطوير بعض التّقْنيّات من أجل الوصول إلى النّوم:

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تقنية رقم 1: اخترعْ حكايةً ونظّمْها، أخرجْ مشاهدها بالتفصيل، وبأكبر قدر ممكنٍ من الدقّة، مع الاعتناء بتهيئة العناصر الملائمة لتطّورها. تخيَّلِ الشخصيّات دون أن تنسى نفسك بوصفك الممثّل الرئيس، جهّزْ الديكورات، وزّع الإضاءة، فكّرْ في الأصوات. حسناً. فلتدخلِ الآن في هذا السيناريو، فلتطوّره ولتسيطرْ عليه بطريقةٍ محكمةٍ إلى أن ينقلب الوضع، فيكتسبَ حياةً مستقلّةً ويستولي عليك، ليصنعَك في النهاية كما ابتكرته أنت. هكذا، في أحسن الأحوال، تَفيد هذه الحكايةُ ممّا يُقدّم لها، تستقلّ بنفسها وتتطوّر وفقاً لقوانينها الذاتيّة، لتصبح حلماً قائماً بذاته، والحُلم يعني النوم، فهيّا!

اعتراض: جميلٌ هذا كلّه، ولكنّ تخيُّلَ أنّنا نستطيع توقّع النّعاس يعني أنّنا نجهل حقّاً ما هو. قد يكون بمقدورنا، في أقصى الأحوال، أن نحسّ بأنّه يغشانا، لكنّنا لا نستطيع رؤيته إلّا بقدر ما نستطيع التّحديق في الشمس مواجهةً. إنّه هو من يسيطر عليك من الخلف أو مِن حيث تتعذّر رؤيتُه، فالمرء لا يقارب النعاس وكأنّه جنديّ حراسة، يترصّد، ويده على جبينه، انبثاقَ الرؤى النعاسيّة -مربّعاتٍ،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حلزونيّاتٍ، كوكبات- التي عادةً ما تُنبئ بقدومه. إنّنا نبحث عن تلك الرؤى، نحاول أن نحفّزها، حتّى تَتَتابع أمامنا، ثمّ تتوارى، وتتمنّع، وتنتظر لحظة أن نتخلّى عنها لكي تقرّر الهجوم. أو لا. خلاصةُ الكلام.

بعدها بثلاثة أسابيع، كانت السّماء ملبّدةً بالغيوم حين وصل خمسون ضيفاً إلى مونفور يومَ أحد، لكي يسلّموا لراڤيل، في احتفال باذخ، تمثاله النصفيّ الذي نَحتَه ليون ليريتز. انتَشروا بدايةً في أرجاء البيت الذي كان في حالة فوضى إلى حدّ ما، ولكن، كالعادة دون أيّ شيء على مكتب راڤيل، الذي كان شديدَ الحرص على أن لا يخلّف وراءه أيّة علامة تتعلّق بالعمل. لا قلم رصاص، لا ممحاةً، ولا ورقاً مسطّراً على طاولته أو أسفل صورة أمّه أو على البيانو من نوع «إيرار» الخاصّ به، المُغلق على الدوام حين يأتيه ضيوف -لا شيء في اليدَين، لا شيء في الجيوب، مثل السّاحر. ثمّ انتقل الضيوف، على الرغم من الجوّ المكفهرّ، للجلوس في الخارج وتناولِ كأسٍ من الشّراب. بالقياس إلى البيت، لم تكن حديقةً واسعة، لكنّها نُظِّمت جزئيّاً على طراز الحدائق اليابانية، في سلالم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ودروبٍ متعرّجةٍ بين المساحات العُشبية، وممرّاتٍ تحفُّها الأزهارُ النادرة والأشجار القزمة، تلتقي عند حوضٍ تتمايلُ فيه نافورة مياهٍ نحيلة.

كان هنالك، إضافةً إلى هيلين، بالطبْع، وليريتز؛ الشابِّ اللّطيف ذي الصّوت النّاعم، المتصنِّع قليلاً، عددٌ لا بأس به من أناس لا تعرفونهم بالضرورة، مثل رينيه كيردك، سوزي فيلتي أو بيار أوكتاف فيرّو، ناهيك عن آخرين قد تكونون سمِعْتم بهم مثل أرتور هونيغير، ليون بول فارغ، أو جاك إيبير؛ باختصار، الأصدقاء المعتادون. ومن بينهم الشابّ روزنتال، الذي كان عليه، وهذه هي وظيفته المعتادة، أن يضخّ الماء إلى آلة صنْع الثلج طيلة ساعاتٍ من أجل تبريد المشروبات. وبما أنّ راڤيل كان قد أعلن نفسه خبيراً في مجال الكوكتيل، فقد أمضى وقتاً طويلاً جدّاً في القبو، ليصنع خلطاتٍ غريبة ظلّت تركيباتها سرّاً، وقد أَطْلق عليها أسماء «أندلسيّ»، فيفي، أو فالنسيا، وتوجّب شُرب العديد منها قبل الاستعداد لالتقاط صورة: هو، الصّارم كالعادة، كان من النادر أن يُرى في زيٍّ كهذا؛ بقميص بلا سترة، مشمَّر الكمّين، وسيجارته الغولواز

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

دائماً في يده، فيما اليد الأخرى في جيبه، محاطاً بخمس نساءٍ جميلاتٍ، بشوشاتٍ جدّاً، وحده لا يبتسم بينما يبدو أنّ ضيوفه يستمتعون إلى حدٍّ بعيد: فقد لعبوا «الغمّيضة» بعد العشاء الذي تخلّله الكثير من الشّرب، ثمّ أدّى راڤيل، الذي كان في أفضل حالاته، بعد أن استعار قبّعة هيلين ومعطف السيدة جيل مارشيكس، بضع خطواتٍ راقصةً، وسط الهتاف له. ثمّ أنهوا، على ما يظهر، ذلك الأحد الرائع في نادٍ ليليّ.

أو أنّهم لم يفعلوا، وفقاً للجيران، الجيرانِ دائماً: فبعد يومين، جاء زغيب لتناول العشاء عند راڤيل فوجده في المطبخ مع السيدة ريفلو؛ بقامتها القصيرة، وثيابها السوداء، وكتفيها المائلتين إلى الأمام، ووجهها المتبلّد، منشغلةً بأفرانها وقد أدارت ظهرها، وبدت عليها علامات الاستياء. ولمّا بدا أنّ سيّدها غاضبٌ هو أيضاً، فقد استفسر زغيب عمّا يجري. فسأله راڤيل بفظاظة: قل لي، هل حدث يوماً أن روى النّاس عنك أشياءَ مزعجة؟ فردّ زغيب أنّه لا يدري عن ذلك شيئاً وأنّ الأمر، في الحقيقة لا يهمُّه. وعنّي أنا، ألم تسمع شيئاً، قال راڤيل؟ الحقيقة، أخشى أنّ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الجواب هو نعم؛ بعض الأمور، في الواقع، اعترف زغيب. أيّة أمور؟ تساءل الآخر. حسناً، يبدو أنّك قد دعوت إلى بيتك، أوّل أمس، خمسين شخصاً لتدشين تمثالك النصفيّ، وهو أمرٌ يصعبُ تصديقه نظراً لحجم البيت. هذا صحيح، أقرّ راڤيل. ليس هذا كلّ شيء، قال زغيب. ويبدو أنّ كلّ أولئك الناس وجدوا أنفسهم عراة تماماً في نهاية السّهرة، من أجل... أنت تفهم ما أرمي إليه، أهذا هو ما تودّ الحديث عنه؟ هذا هو، قال راڤيل. هذه هي الأقاويل التي سمِعَتْها مدبّرةُ منزلي في السوق. ألا تجد هذا مخزياً؟ المخزي ليس هنا، ردّ زغيب. أين هو إذن، تساءل راڤيل مندهشاً؟ المخزي، قال زغيب بنبرة قاسية، هو أن تدعوني دائماً إلى سهرات مؤدّبة، بل مملّة، بصراحة، ثمّ تنساني في المرّة الوحيدة التي كان فيها شيء من المتعة. تسمّر راڤيل لحظةً، ثمّ استدار نحو السيدة ريفلو التي أحنت كتفيها أكثر قليلاً: ها هو اللّوم الذي تجرّينه عليّ بقصصك هذه، قال لها فجأةً. ثمّ أخذ يضحك بقوّة، وضحك زغيب في أثره، ثمّ صمَتا.

في ما تلا من وقت، لم يعد راڤيل يدري ماذا يفعل. فلا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

شيء يغويه حقّاً، لا شيء يستحقّ العناء. وقد اشتدّ قلقه من الأمرِ حين طلبت إليه إيدا روبنشتاين وضع التوزيع الأوركسترالي لبعض مقطوعات» إيبيريا» لألبينيث، من أجل تحويلها إلى باليه تؤدّي هي نفسها رقصاته. وإيدا روبنشتاين فتاةٌ رائعة؛ فهي من ذلك النوع من الفتيات، الذي يمضي لصيد الأسود في إفريقيا حين يصيبه السأم؛ هي مَن تتصّل بك منتصف اللّيل من أمستردام لتخبرك إلى أيّ حدّ، هذا الصباح، كانت الشمس التي شاهدتها من الطائرة، خلال عودتها من بالي، تشرق بأناقةٍ فوق الأكروبول؛ ومَن تُبحر على متن يخْتها إلى الطرف الآخر من الكرة الأرضية برفقة قرودها وفهْدها المروَّض، دون أن تنسى بيجاماتها الذهبية النّسيج، وقلنسواتها التي تشبه قنزعة البلشون الأبيض، ولا صدريّاتها المرصّعة بالأحجار الكريمة. كانت إيدا روبنشتاين طويلة القامة، بالغة النحول، وبالغة الجمال، وبالغة الثّراء، لا يمكن أن يُردّ لها طلب. هو مشروعٌ، في نهاية الأمر. هكذا هي الحال دائماً.

بدأ راڤيل العمل، وبدا وكأنّ ذلك يعجبه إلى أن حلّ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الصيفُ وآن أوان الذهاب لفترة طويلة، كما في كلّ عام، إلى بلاد الباسك؛ إلى سان جان دو لوز، بالقرب من سيبور، مسقط رأسه، كي يلتقي صديقيه غوستاف سامازوي[1]، وماري غودان[2]. كان خواكين نين[3] هو من أخذه في سيّارته الهوتشكيس لرؤية مصارعة الثّيران، ولِعْب كرة الباسك، والاستحمام في البحر، وتناول فلفل اسبيليت[4] ونبيذ ايريلوغي[5]. توقّفا في أركاشون، حيث أخبره نين، وكان المساءُ قد حلّ وهُما على رصيف الميناء، أنّ مشروع «ألبينيث» يطرح مشكلة تتعلّق بالحقوق، نظراً لأنّ شخصاً يدعى آربوس قد سبق أن نفّذ توزيعاً أوركسترالياً لتلك المقطوعات. لا يهمّني ذلك، قال راڤيل بحدّة، ومن يكون آربوس هذا؟ غير أنّ هيئته لم تكن تظهر أنّه لا يبالي

(1) موسيقيّ وناقد فرنسيّ (1877–1967).

(2) (1879–1976) ابنة عائلة ارتبط راڤيل بصداقات مع عدد من أفرادها. كانت مقربّة من راڤيل وتبادل معها الكثير من الرسائل.

(3) عازف بيانو ومؤلف موسيقي كوبيّ (1879–1949). كان صديقاً لراڤيل وشاهداً على ولادة عمله الشهير «البوليرو".

(4) نوع مشهور من الفلفل الأحمر،عرفت به بلدة إسبليت، في بلاد الباسك.

(5) نبيذ فرنسي ينتج في قرية إيريلوغي الباسكية، في منطقة نافار السفلى.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

بالأمر كما قال. حين رأي نين أنّ المسألة بدأت تقلق راڤيل، استقصى الحقيقة من الناشر؛ فتبيّن أنّ شبكةً حصينةً من الاتفاقيات والعقود والإمضاءات وحقوق المؤلِّف تحمي «ايبيريا» وأنْ لا أحد غير المدعوّ آربوس يملك الحقّ في التصرّف في أعمال ألبينيث.

في سان جان دو لوز، استشاط راڤيل غضباً، وكان متوتّر الأعصاب، مكدّراً: لقد أُفسِدَ موسمي، هذه قوانين غبيّة كلّها. إنّني أحتاج إلى أن أعمل، وكان التوزيع الأوركسترالي لتلك المقطوعات يسليّني، ثمّ ماذا سأقول لإيدا؟ لسوف تفقد صوابها. على كلّ حال، سأعود إلى باريس غداً. لا أريد أن يفوتني الاحتفال بالرابع عشر من يوليو. لم يصدّق نين كلمةً واحدة من كلّ هذا. بالتأكيد، سيهرع راڤيل إلى الناشر وإيدا لكي يسوّي الأمر. كان نين مخطئاً. فكلّما جاء الرابع عشر من يوليو، ثار حماس راڤيل ونشاطه، فليس من الوارد أبداً أن يفّوت حفلاً راقصاً واحداً. هكذا، كان يذرع أحياء باريس كلّها، ويتريّث عند مَداخل كلّ المقاهي، إذ يحلو له أن يشاهد منها أزواج الرّاقصين المتلاصقين تحت الفوانيس، وسماع الفرق

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الموسيقية، حتّى تلك التي تتكوّن من عازف أكورديون وحيد.

في اليوم التالي، حين جاء نين ليصطحب راڤيل من الفندق إلى محطّة القطار، وجده مضطرباً، حائراً في غرفته التي عمتّها فوضى مرعبة، حيث اختلط على سريره الحابل بالنابل: الحمالّات والأحذية والفُرَش وربطات العنق ومستلزمات الحمّام وعلب السجائر، فيما القطار سيغادر بعد ربع ساعة. كان راڤيل الذي انتهى أو يكاد من ارتداء ثيابه يريد، بأيّ ثمن، تمليس شعره، لكنّ نين قاده بحزم إلى السيّارة، وجمع في طريقة بعض المستلزمات التي كدّسها بسرعة في حقيبة. وصلا إلى المحطة في الموعد تماماً، دفع نين راڤيل إلى القطار الذي بدأ انطلاقته، ثمّ رمى إليه من نافذة مقصورته، وهو يركض بمحاذاتها، الحقيبةَ التي لم تكن ثقيلة جدّاً، لحسن الحظّ.

لم يكن ذلك كلّه، في الجوهر، سوى إنذارٍ كاذب، فالعجوز آربوس، وقد علِم بالخبر، أبدى بكلّ لباقة استعداده للتنازل لراڤيل، الشابّ الذي يصغره سنّاً، عن كلّ ما يشاء من حقوق، وفي هذا دلالةٌ على ما بلغه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الشابّ من مجدٍ بعد جولته في أميركا، الشابّ الذي تخلّى فجأةً، في نزوةٍ من نزوات الشّباب، عن هذا المشروع. غير أنّ الوقت داهم الناشر الذي كان قد التزم بالأمر، وبات بحاجة إلى قطعة موسيقيّة مكتوبة، في شهر أكتوبر. حسناً، قال راڤيل، في نهاية المطاف، سأتدبّر أمري وحدي. سأكتب القطعة بنفسي، وعندها سأنجز توزيع موسيقاي بأسرع ممّا أفعل مع موسيقى الآخرين. وفي كلّ الأحوال، هي ليست سوى باليه؛ فلا حاجة لشكلٍ، بالمعنى الدقيق للكلمة، أو لتطوّر اللّحن، ولا حتّى للتّنغيم، نحتاج فقط للإيقاع وللآلات. ليس للموسيقى هذه المرّة أهميّة كبيرة. يبقى أن يبدأ العمل.

بعد أن عاد إلى سان جان دو لوز، ها هو على وشك المغادرة في الصباح الباكر إلى الشاطئ بصحبة سامازوي، مرتدياً ثوب حمّام ذهبيّ اللون، فوق مايوه سباحةٍ أسودَ بحمّالات، ومعتمراً طاقيّةَ سباحةٍ قرمزيّة اللّون. تلكّأ للحظةٍ خلف البيانو مكرّراً عزف جملة موسيقية بإصبع واحدة. ألا ترى أنّ ثمّة ما هو مُلحٌّ في هذه التّيمة؟ توجّه بالسؤال إلى سامازوي، ثمّ مضى ليسبح. وحين خرج من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الماء، وجلس على الرمل تحت شمس يوليو، عاد للحديث عن تلك الجملة. سيكون من الجيّد صُنْع شيء منها. بوسعه مثلاً أن يكرّرها أكثر من مرّة دون تطويرها، مكتفياً بتلويناتٍ أوركسترالية متدرّجة بأفضل ما يستطيع، أليس كذلك؟ ثمّ أردف قائلاً قبل أن ينهض ويعود للسّباحة، لعلّ ذلك ينجح كما نجحت «لامادلون»[1]. بل سينجح أكثر، يا موريس، سينجح أكثر من «لا مادلون» مائة ألف مرّة.

انتهت العطلة. ها هو جالسٌ خلف البيانو، وحيداً في بيته، أمامه مدوّنةٌ موسيقيّة، وبين شفتيْه سيجارة، وبتسريحة شَعرٍ بالغة الأناقة كالعادة. كان يرتدي، تحت ثوبِ نومٍ ببِطانة فاتحة اللّون، وجيبٍ باللّون ذاته، قميصاً مقلّماً بخطوطٍ رماديّة وربطة عنقٍ برونزية. كان في وضع دوْزنة العازف لآلته، يده اليسرى على لوحة المفاتيح، بينما تسجّل يده اليمنى التي تحملُ قلمَ رصاصٍ آليّاً معدنيّاً حُشر بين إصبعيه الوسطى والسبّابة، على المدوّنة، ما

(1) أغنية شعبية لحنّها كامي روبير Camille Robert ولاقت رواجاً كبيراً في فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تعزفه اليُسرى. كان متأخّراً في عمله كالعادة، وقد رنّ الهاتف للتّو، حيث ذكرّه الناشر مرّة أخرى بأنّ الوقت يضيق، وأنّ عليه أن يحدّد على وجه السرعة مواعيد بروفات العمل المنتظر، الذي أَعلنَ عنه ولكنّه لا يعرف عن مصيره شيئاً. كان راڤيل يبتسم، لكنّ ذلك لا يُرى. يريدون إجراء بروفات، هم يحرصون حقّاً على إجراء بروفات. حسناً إذن! سيجرون البروفات، سوف ينالون نصيبهم من البروفات!

ثمّ تناول عشاءه، كما يحدث عادةً حين يكون وحيداً، في مواجهة الحائط الذي ثُبّتت فيه الطاولة القابلة للطيّ. كان طقم أسنانه، وهو يلتهم اللّحم، يُصدر صوتاً كصوت الصّاجات أو كصوت رشّاش يدوّي في الغرفة الضيّقة. كان يأكل وهو يفكّر في العمل الذي يقوم به. لطالما أحبّ الآلات والأجهزة الذاتيّة الحركة، وزيارة المعامل، والمشاهد الصناعيّة. إنّه يتذكّر تلك المشاهد في بلجيكا ومنطقة الراين حين كان يمرّ بها على متن يختٍ نهريٍّ قبل عشرين عاماً، المدنَ التي تعلوها المداخن، والقُببَ التي تقذف اللّهب والأدخنة الحمراء والزرقاء، وقلاعَ صهر

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الفولاذ والكاتدرائيات المتوهّجةَ وسمفونيّات أحزمة نقل الحركة، والصفّارات، وضربات المطارق تحت السّماء الحمراء.

ربّما كان هنالك منْ أورثه هذا الميْل إلى الميكانيك، فقد ضحّى والدُه بالنّاي والبوق من أجل مسيرةٍ مهنيّةٍ كمهندس، قادته لأنْ يخترع -من بين أشياء أخرى- مولّداً بخاريّاً يُسخَّن عن طريق الزّيوت المعدنيّة ويُستخدم في وسائل النقل، ومحرّكاً فائق الضّغط، ثنائيّ الأشواط، ومدفعاً رشّاشاً، وآلةً لصنع الأكياس الورقيّة، وسيّارةً ابتكرَ لها حركةَ بهلوانية أسماها دوامّةَ الموت. في كلّ الأحوال، كان هنالك مصنعٌ يقع على طريق فيزينيه، بعد جسر «رويْ» مباشرة، كان راڤيل يحبّ مشاهدته في تلك الآونة، فهو يُلهمه بعض الأفكار: لقد كان يؤلّف شيئاً ينتمي لنظام العمل المتسلسِل الرّتيب.

سلسلةٌ وتكرار: انتهى من تأليف المقطوعة في أكتوبر، بعد شهرٍ واحدٍ من العمل عكّره زكامٌ شديد أصيب به خلال جولة في إسبانيا، تحت أشجار جوز الهند في مالقة. كان يدرك جيّداً ما الذي أنجزه: لا شكلَ له، بالمعنى

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الدّقيق للكلمة، لا تطّورَ في اللّحن، لا تنغيمَ، بل إيقاعٌ وتوزيعٌ فقط. باختصار، هو شيءٌ يدمّرُ ذاته بذاتِه، نوتةٌ بلا موسيقى، صنيعٌ أوركستراليٌّ بلا مادّة، انتحارٌ، السلاح الوحيد المستخدم فيه هو مدُّ الصوت، جملةٌ مكرورة، شيءٌ بلا أملٍ ولا يمكننا أن ننتظرَ منه شيئاً، ها هي على الأقلّ، قالَ، مقطوعةٌ لن تجرؤ الفرقُ الموسيقية القليلة الخبرة على إدراجها في برامجها. لكنّ هذا كلّه بلا أهميّة. لقد وُضعت من أجل الرّقص، سيكون تصميم الرّقصات والإضاءة والديكور هو ما يسند تكرارات تلك الجملة. وبعدما أنهى العمل ذات يوم، وعند مروره بالقرب من مصنع فيزينيه مع شقيقه، قال له: هل ترى، هذا هو مصنع «البوليرو»[1].

لكنّ الأمور لم تجرِ على النّحو المنتظر. فحين قُدّمت المقطوعة في رقصةٍ للمرّة الأولى، كانت مربكةً قليلاً، لكنّ الأمر نجح. أمّا النجاح السّاحق، فقد جاء لاحقاً في الحفلات الموسيقيّة. كان نجاحاً استثنائيّاً، فالشّيء الذي لا أملَ منه حقّق انتصاراً أذهل الجميع، بدءاً من مؤلّفه

(1) المعزوفة الشهيرة التي تعدّ من أهم مؤلفات راڤيل، وواحدة من أكثر معزوفات الأوركسترا أداءً في العالم.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ذاته. صحيحٌ أنّه في بدايات تقديم المقطوعة، صاحت في إحدى المرّات امرأة عجوز، في نهاية العرض بأنّ المؤلّف مجنون، لكنّ راڤيل هزّ رأسه قائلاً لأخيه: أخيراً، ها هي واحدة قد فهمت الأمر. وسينتهي به الأمر إلى القلق من هذا النجاح؛ فأنْ يحصد مشروعٌ شديد التشاؤم نجاحاً شعبيّاً لن يلبث أن يصبح عالميّاً لفترة طويلة، لا بل حتّى واحدة من اللّازمات التي يردّدها العالم، هو أمر يدفع المرء للتساؤل، وخصوصاً لتوضيح الأمور. وقد ردّ فوراً على من غامروا بسؤاله عن العمل الذي يعدّه دُرّةَ أعماله: إنّه البوليرو، ولكنّه للأسف خالٍ من الموسيقى.

غير أنّ شعوره بشيءٍ من الازدراء تجاه هذه المقطوعة لا يعني أنّ علينا أن نستخفّ بها. فعلى العالم أن يفهم أيضاً أنّه لا يمكن العبثُ بحركته الموسيقية. فحين قام توسكانيني بتنفيذها على طريقته، أي أسرع مرّتين وبإيقاعٍ متصاعد، جاء راڤيل ببرودٍ لرؤيته بعد الحفل ليلفت انتباهه: هذه ليست حركتي. مال عليه توسكانيني، فاستطال بذلك وجهه الطويل أصلاً، وتغضنّ جبينُه المثلّثُ الشكل: حين أعزف هذا، في حركتك، فإنّه لا يحدِث أيّ تأثير. حسناً، لا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تعزفه إذن، ردّ راڤيل. لكنّك لا تفقه شيئاً في موسيقاك، قال توسكانيني وشاربه يرتعش، كانت تلك الطريقة الوحيدة لإيصالها للجمهور. حين عاد راڤيل إلى البيْت، ودون أن يخبر أحداً بما حصل، كتب رسالة إلى توسكانيني، لم نعرف ماذا قال له فيها.

حين استضافته جامعةُ أكسفورد، كان قد أنجز لتوّه ذلك الشيء في سلّم سي الكبير، الذي كان يجهل أنّه سيصنع مجده. ها هو يَخرج من مسرح شلدونيان إلى فناء مكتبة بولديان، مرتدياً سترة ريدنغوت، وبنطالاً مخطّطاً، وحذاءه اللّمّاع، الذي من دونه لا يكونُ شيئاً، وربطةَ عنق، وقميصاً بياقةٍ مقصوصة، وفوق كلّ هذا العباءة والقبّعة، ضاحكاً وحريصاً على البقاء مستقيم الظّهر ما أمكن، وقبضتاه مغلقتان، وذراعاه تتدليّان على امتداد جسده القصير. في الصورة يبدو أبلهَ قليلاً. قبل ذلك بثماني سنوات كان قد أثار ضجّة كبيرة برفضه وسام جوقة الشّرف، لكنّ تلقّي درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة أكسفورد، مشفوعةً بالثناء باللغة اللاتينية، أمرٌ لا يُرفَض. بعد ذلك، استحقّ الأمر أن يقوم بجولة صغيرة في إسبانيا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

من أجل الراحة.

ذات مساء، راوده في الفندق شعورٌ مريحٌ لوجوده في سرقسطة. كان وحيداً في غرفته، مسترخياً في أريكته قرب النافذة المفتوحة. خلع حذاءه، ومدَّ قدميه الحافيتَين على المسند. أخذ يتأمّل قدميْه اللّتين كانت أصابعهُ العشر، في طرفيْهما، تتنقّل من تلقاء ذاتها، وتتحرّك فيما بينها كما لو كانت تومئ إليه، وترسل إليه علامات التّضامن. نحن أصابعُ قدميك، نحن جميعاً هنا، إنّنا نعتمد عليك، وأنت تعلم أنّ بوسعك الاعتمادُ علينا كما على أصابع يديك[1].

ظنّ أنّ في وسعه الاعتماد عليها، لكنّه بعد يومين، حين أراد عزف مقطوعته «السّوناتا الصغيرة»[2]، في سفارة مدريد، انتقل مباشرة من العرض إلى الخاتمة قافزاً عن حركة المينويه[3]. يمكننا أن نفسّر هذا الحادثة كما نهوى. بوسعنا أن نعزو ذلك إلى نسيانٍ مفاجئ، أو أنْ نفترض

(1) يوظّف المؤلّف هنا المعنى المزدوج للفعل compter: يحسب أو يعدّ، ويعتمد على.

(2) Sonatine.

(3) بدأت المينويه Minuet في عصر الباروك كرقصة شائعة ثلاثية الوزن واستُخدمت لاحقاً في الفترة الكلاسيكيّة كحركة داخل سيمفونية أو رباعية وترية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنّ تِكرارَ عزف ذلك الشيء العتيق الذي يعود إلى أكثر من عشرين عاماً، وعلى نحوٍ متواصلٍ، هو أمرٌ يتعبه. كما يمكننا أن نتخيّل أنّه فضّل، أمام جمهورٍ متمادٍ في قلّة انتباهه، أن ينتهيَ سريعاً من أداء تلك المقطوعة. وقد نقول لأنفسنا أيضاً إنّه للمرّة الأولى، أمام الجمهور، ثمّة شيءٌ لم يعد ينجح.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

7

التّقنيّة رقم 2: أن يبحث، مُتقلّباً في الفراش لساعاتٍ، عن الوضْع الأمثل؛ عن التكيّف الأمثل لهذا الجسدِ المُسمّى راڤيل مع قطعة الأثاث المُسمّاة سرير راڤيل، عن التنّفس الأكثر انتظاماً، والوضعيّة الأمثل للرأس على الوسادة، والحالة التي تجعل الجسد ينصهر ثمّ يمتزجُ بالفِراش، هذا الاندماج الذي من شأنه أنْ يفتح أحد أبواب النّعاس. عندئذٍ، ما على راڤيل سوى أن ينتظرَ أنْ يستوليَ هذا الأخير عليه، مترقبّاً وصوله مثل ضيفٍ .

اعتراض: من جهةٍ، وقد سبق أن رأينا ذلك، من شأن هذا الانتظار نفسه، ووضع المُراقب ذاك وما يستدعي من انتباه -مهما اجتهدَ في تجاهله- أن يمنعه من النّوم. ومن جهةٍ أخرى، بعد العثور على ذلك الوضع، يحدث

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أن يتعطّل في كثير من الأحيان الخدرُ المشجّع الذي يعقبه موهماً باقتراب النّعاس؛ فقد يقع تماسٌّ لا ندري في أيّ نقطة، وينبغي عندها بدء كلّ شيءٍ من جديد. والأسوأ أنّه يجبُ إعادة كلّ شيء من نقطة الانطلاق الأبعد، وهذا أمرٌ مُحبط. أشعل راڤيل مصباح السّرير، ثمّ سيجارةً، سَعلَ قبلَ أن يسحقها، ليعاود إشعال أخرى على الفور وهكذا بلا نهاية.

ربّما يمكنه أن يجرّب النوم مع شخصٍ آخر. فالنّعاس يكون أحياناً أسهل عندما يكون المرء أقلّ وحدةً في السّرير. كان يمكنه دوماً أنْ يقوم بهذه المحاولة. ولكنْ لا. لا فائدة. إذ لم يُعرفُ عنه أنّه قد وقعَ في الحبِّ يوماً؛ حبّ رجلٍ أو امرأة، أيّاً كان. نعرفُ أنّه حين تشجّع ذات يوم وطلب من صديقةٍ له الزواج منه انفجرتْ ضاحكةً بقوةٍ وصارخةً أمام الجميع بأنّه مجنون. ونعرف أنّ هيلين، حين حاول معها، سائلاً إيّاها بصورةٍ مواربةٍ إنْ كان لا يروقها أنْ تسكنَ في الرّيف قد رفضت هذا العرض، بطريقة صحيح أنّها أكثر لطفاً ورقّةً. ولكن حين عرضت عليه ثالثةٌ، طويلة القامة وضخمةٌ بقدر ما كان قصيراً ونحيفاً،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

العرضَ ذاته، كان هو هذه المرّة من ضحك حتّى دمعت عيناه.

كما نعلمُ أنّ الشابّ روزنتال قد وجده ذاتَ مرّة في حانةٍ عند باب شامبيريه، حيث كان لراڤيل على ما يبدو علاقاتٌ ممتازة، أو على الأقلّ مفعمة ودّاً، مع بائعات هوىً اتّخذن من ذلك المكان مقرّاً عامّاً. ونعلمُ أنّ روزنتال نفسه استطاع أنْ يُفاجئه أثناء مكالمةٍ هاتفيّةٍ مع إحداهنّ -عبّرت فيها عن غضبها الشّديد لأنّ راڤيل فضّل إعطاء درسٍ لروزنتال على أن يشاطرها، هي، سريره. ونعلمُ أنّه ذات يوم، مستأذناً ليريتز بالانصراف، أوضح له بلا اكتراث أنّه ذاهبٌ إلى بيت دعارة، لكنّه كان يمزح أيضاً. وبالتالي، فإنّنا نعرف القليلَ القليلَ من الأمور، مع أنّه يُمكننا أن نفترض بعضاً منها؛ مثل هذا الميل، الذي ربّما كان استسلاماً أكثر منه اختياراً، إلى العلاقات السّريعة العابرة. باختصار، نحن لا نعرف شيئاً؛ لا شيء تقريباً؛ غير أنّه ذات يوم، أمام مارغريت لونغ التي شجّعته على الزّواج، عبّر عن رأيه مرّةً واحدةً ونهائيّة حول مسألة الحُبّ، فَحَكَم بأنّ هذا الشّعور لا يرقى أبداً إلى ما يتجاوز الخلاعة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فلنكّف عن الحديث في هذا. مضى كلّ شيءٍ على خير ما يُرام العامَ المنصرم في أوكسفورد، عند تسلّمه الدكتوراه الفخريّة هناك، إلى درجة أنّهُ دُعي إلى انجلترا مرّةً ثانية. وقد تزامنت عودته إليها تقريباً مع عودة فيتغنشتاين من النّمسا ليحصل، بدوْره، على لقب دكتور ولكن من كامبردج وفي الفلسفة. وإذا كان هناك احتمال ضئيلٌ بأنّ يكون راڤيل قد قابل لودفيغ فيتغنشتاين[1]، فلا بدّ أنّ طريقيهما قد تقاطعا على الأقلّ. فبعد ثلاثة أسابيع، عرف راڤيل، في فيينّا، شقيق فيتغنشتاين الأكبر؛ بول، عازف البيانو الذي سجنَه الرّوس ثمّ نفوه إلى سيبيريا. وقد عاد من الجبهة فاقداً ذراعه اليُمنى، فلم تحبطْه تلك الخسارة، وانكبّ، بصورة منطقيّة، على ما كان قد أُلّف حتّى تلك اللّحظة من موسيقى لِتُعزف فقط باليد اليُسرى، ولكنْ بما أنّ هذا المخزون كان محدوداً جدّاً: ريجير، سان سانس، وشوبيرت (بتدوين ليْستْ) وباخ (بتدوين برامس)، فقد خطر له أنْ يكلّف مؤلّفين موسيقيّين من عصره للكتابة

(1) Ludwig Josef Johann Wittgenstein (1889–1951): فيلسوف نمساويّ ثمّ بريطانيّ الجنسيّة، له مؤلّفات معروفة في أصول الرياضيّات وفلسفة اللّغة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لهذه اليد. وكان راڤيل قد صادف بول فيتغنشتاين أثناء حفلٍ كان هذا الأخير يعزف فيه مقطوعةً موسيقيّة لريتشارد شتراوس، أُلّفت خصّيصاً لِليَد اليسرى. كان بول فيتغنشتاين عازف بيانو جيّداً، على الأرجح، بوجه كبيرٍ ووسيم -وإن بدا متبلّداً- لكهلٍ أعزب، لا بأس به، ولكنّه أبعد من أنْ يكون بوسامةِ أخيه الفيلسوف. تبادلا «مرحباً»، و«تشرّفت بمعرفتك»، وتوقّف الأمرُ عند هذا الحدّ.

بعد العودة إلى فرنسا، لم تكن الحال على ما يرام. واصل راڤيل التّدخين بإفراط كالعادة، وانتابه الضّجر المعتاد، واضطراب النّوم المعتاد، والشّعورُ الدائم بإرهاق شديد، وباتت تعذّبه بلا توقّفٍ الالتهاباتُ العُقَديّة المُزمنة ومُنغّصاتٌ أخرى صغيرة. وعلى وجه الخصوص، لم يعدُ يعرف جيّداً كيف يَشغلُ نفسه بعد قصّة البوليرو العجيبة. كانَ ثمّة مشاريعُ غامضةٌ تلوح في الأفق: فكرة قديمة لكونشيرتو، لكنّها تقليديّة بعضَ الشيء، نيّة ضعيفة لتأليف أوبرا عن جان دارك، لكنّ ذلك مُرهق جدّاً، محاولات لتأليف أوركسترالي لكنّها لم تفضِ إلى شيء،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

مسودّة لإعادة الاشتغال على «الملك رغماً عنه»[1]، لكنّ الأمر لم ينجح. من الأفضل إذن أنْ يسافر ثانيةً في إجازةٍ استجمام، أنْ يقضي الصيف كلّه في بلاد الباسك، وأنْ يفكّر بشيء آخر.

في نهاية الصّيف، وبينما كان يقرأ في صحيفة «لو بوبولير» الأخبار غير السّارة على شرفته، وصلت من النّمسا رسالة من فيتغنشتاين، يطلبُ منه فيها كتابة كونشيرتو لِلْيَد التي بقيت له. وهنا، لا ندري ما الذي أصاب راڤيل، إذ لم يكتفِ بقبول هذا التكليف وحسبُ بل، بدلاً من كتابة كونشيرتو، عزم في سرّه على أنْ يؤّلف اثنين في الوقت نفسه، الأوّل في سلّم ري الكبير (دي ماجور) والثاني في سلّم الصول، ما سيحقّق أحد مشاريعه الموسيقيّة القديمة. وإذا كان الأوّل مُخصّصاً لفيتغنشتاين، فإنّ الثّاني سيكون له هو، لا لأحدٍ سواه: وفكّر أنّه سيعزفه بنفسه. حتّى ذلك اليوم، لم يكن يُنتج سوى أعمالٍ متعاقبة، في نسخة واحدة، إنّها المرّة الأولى التي أراد فيها أنْ ينجَب، بالتّزامن، توأمين.

(1) أوبرا ساخرة كتبها إيمانويل شابرييه Emmanuel Chabrier وقُدمّت للمرّة الأولى في 1887.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

لكنّهما سيكونان توأمين متغايرَي الأمشاج، فتاريخُ الميلاد هو ما سيجمع الشقيقين، وليس الشّبه أبداً. بدأ بوضع الخطوط الأولى لـ «الكونشيرتو في سلّم الصّول»، ثمّ وضعها جانباً كي يفيَ بالمهمّة التي كُلّف بها. وما إنْ انتهى، بما يكفي من سرعة، من العمل الخاصّ باليد اليُسرى -منطقيّاً، في تسعة أشهرٍ-، حتّى انكبّ على الكونشيرتو الآخر، لكنّ الأمر لم يكن يسيراً هذه المرّة، فقد تلكّأ راڤيل، مواجهاً مشقّةً كبيرةً في العثور على طريقةٍ لإتمام العمل. فالمسألة معقّدة، أليسَ كذلك؟ إنّها في غاية الدّقة؛ نظراً لأنّ هذا الكونشرتو ليس مكتوباً للبيانو بل ضدّه؟ حسناً، قال لزُغيب، بما أنّني لا أنجحُ في إتمام هذا الشيء من أجل اليدَين الاثنتَين، فقد قرّرتُ ألّا أنامَ، ولو لحظةً واحدة، أترى؟ لن أرتاح إلّا حين يكتمل هذا العمل، سواء في هذا العالم، أو في العالم الآخر.

حين اكتمل العملُ أخيراً، بدأت مارغريت لونغ[1]

(1) عازفة بيانو ومدرسّة موسيقى فرنسية (1874–1966). ارتبطت بصداقة مهنية مع راڤيل وكانت أوّل من أدّى عمله «كونشرتو في سلّم الصول»، عام 1932. وكتابها «على البيانو مع راڤيل»، الذي صدر سنة 1973 بعد موتها، واحد من مصادر إشنوز في كتابة هذه الرواية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

-وقد أُبلغت بذلك على الفور، بفكّ شيفرته، ليس من دون مشقّة. فحين لم يكن راڤيل واقفاً خلفها مُصحّحاً بلا توقّف، كان يَشغل بالَها عبر الهاتف، بقيّة الوقت. كانت متردّدة، كما عبّرت له عن قلقها بشأن الحركة الثّانية في مقطوعته، والصّعوبة التي سيلقاها العازف في أداء ذلك التقدّم البطيء، تلك الجملة الطّويلة التي تنساب، كما قالت. «التي تنساب؟» من الذي ينساب؟ -أخذ راڤيل يصرخُ- لقد صُغت هذه الجملة مازورتَين مازورتَين[1]، وكِدْتُ أموت بسببها. حسناً، لكنّه، في المحصّلة، قد أنجز كلّ ذلك في غاية السرعة، إذ لم يستغرق الأمر أكثرَ من سنةٍ أو أزْيَد بقليلٍ لِينْتهي من مشروعه المُزدوج.

وحين قَدّر راڤيل أنّ مقطوعته «كونشرتو لِليد اليسرى» باتت جاهزة، دعا عرّابَها إلى مونفور كي يعرضَ عليه ذلك الشيء. كان لبول فيتغنشتاين الهيئة الغامضة ذاتها: نظّارةٌ صغيرةٌ وصدغان حليقان، وبنيةٌ جسديّة صلبة وصارمة، فيما طرفُ كمّ سترته الأيمن الفارغ مدسوسٌ في جيبه.

(1) تشكّل العلامات الموسيقية، بما فيها إشارات الصّمت المحصورة بين الفاصلين، ما يُسمّى مقياساً أو مازورة. والمفردة الأخيرة عربّها أهل الموسيقى من الإنجليزيّة measure أو الفرنسية mesure .

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كان من حسن الحظّ أنّه لم يبقَ لتناوُلِ الغداء، فقد كان راڤيل يُفكّر كيفَ سيُقطّعُ له شريحة اللّحم متوقّعاً أنّ نظرةً خاطفةً من الضيف ستثنيه عن ذلك. اكتفيا بمناقشة نتيجة ذلك التكليف. وبعد أنْ عرض عليه تكوينَ الأوركسترا والجّوّ الأساس لكلّ حركةٍ من الحركات الموسيقيّة، عزف راڤيل بيديْه الاثنتَين، ليس بما يكفي من الجوْدة، الجزءَ المنفرد (الصّولو)، فَوجد فيتغنشتاين بدايةً أنّ راڤيل عازف بيانو رديء على الأرجح، وأمّا العمل نفسه، فلم يُخفِ، وهو الفخور أبداً بأنّه لم يتعلّم الكذب، أنّه يراه متوسّطَ القيمة. حاول راڤيل أنْ يُخفيَ خيبة أمله بتقليب سيجارة غولواز، وتمسيدها مطوّلاً قبل أنْ يضعها في فمه، مستغرقاً كلّ الوقت الذي يحتاجه تَدخينُها في صمتٍ، ثمّ دسّ فيتغنشتاين مدوّنة المقطوعة في جيبه الأيسر، قبل أنْ يستأذن بالانصراف.

لكنّ هذا الجرحَ لم يكن سوى وخزةِ شوكٍ صغيرة. كان يرى جيّداً في ذلك الحين أنّ مجدَه يتوطّد، أنّهم يعزفون أعماله في كلّ مكان، وأنّ الحديث في الصحف لا يدور إلّا عنه. بدا وكأنّه لم يسبق أن حدث شيء كهذا من قبلُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قطّ -إلى حدٍّ دفع محرِّر جريدة «باريس سوار» إلى القول إنّ في وسع مؤلّف مقطوعات الفالس الموسيقيّة النّبيلة والعاطفيّة أَنْ يفتخر بحقٍّ بأنّه أعاد الاعتبار لكلّ المقاعد الجانبيّة الاحتياطيّة في قاعات الموسيقى. لقد احتلّ مكانةً لا تقبل المنازعة، إلى درجةٍ أثارت غضب المؤلفين الموسيقيّين الشبّان، فبدأوا يثورون موجّهين له انتقاداتٍ لاذعةً على صفحات الجرائد، لكنْ هنا أيضاً بدا أنّه لا يكترث للأمر. وذات مرّة، في حفلٍ باليه لداريوس ميّو[1] حضَرَهُ بصحبة الشابّ روزنتال، صفّق حتى أوجع راحتيه، فقد وجد الأداء غايةً في الرّوعة: برافو، مُذهل، ومُبهر. ولكنْ، سأله جاره، ألا تعرف ماذا يقول عنك داريوس ميّو؟ إنّه يمضي وقتَه في ذمّك وشتْمِك. إنّه ليس مُخطئاً -أوضحَ راڤيل- هذا ما يجبُ أنْ نفعله، حين نكون في سنّ الشّباب. في أمسيةٍ أخرى مع هيلين هذه المرّة، في حفلٍ باليه ألّفه جورج أوريك، وجَدَه راڤيل رائعاً أيضاً، وجميلاً إلى حدّ أنّه أراد التوجّه إلى المؤلّف ليثني عليه. ماذا؟ قالت هيلين، ستذهب لتهنئة أوريك بعد ما كتبه عنك؟ وَلِمَ لا، أجابَ؛

(1) Darius Milhaud (1892–1974): مؤلّف موسيقيّ فرنسيّ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حسناً، لقد كان مُصيباً في انتقاد راڤيل، لأنّه إنْ لم ينتقد راڤيل، فسيقلّد أعماله. وكفانا راڤيل واحد الآن!

وما دمنا في الأجواء الاحتفاليّة، فقدْ أقيم منتصفَ شهر أغسطس في سان جان دو لوز مهرجانٌ على شَرفه، أُطلقَ فيه اسمُه على الشارعِ الذي وُلدَ فيه. استعاد هناك البيانو الخاصّ به، وقميصه، وعاداته. سار الحفلُ بصورةٍ جيّدة، وإن كان كلود فارير -بصوته الجهوريّ ولِحيته البيضاء، وهيئته الأكاديميّة بصفته موظّفاً في البحريّة التجاريّة[1]- قد ألقى خطاباً مرتبكاً، كان راڤيل، بكلّ الأحوال، قد انصرفَ قُبَيْله. خيرٌ لنا أنْ نذهبَ لتناول شراب الكرز، لا أريد أنْ أكون من السُّخف بحيث أحْضر مراسمَ وضع اللافتةِ التي تحملُ اسمي. هذا ما قاله لروبير كاساسدو[2] مصطحباً إيّاه من ذراعه. بالمقابل، كان شديد الانتباه إلى مسابقة كرة الباسك التي كانت ستُختَتَمُ بها هذه الفعاليّة. وفي نهاية المسابقة، وقف مُرتدياً بذلته، حاسِر الرّأس

(1) كان الكاتب الفرنسيّ كلود فارّير Claude Farrère (1876–1957) ضابطاً في البحريّة فعلاً.

(2) Robert Casadesus (1899–1972): مؤلّف موسيقيّ وعازف بيانو فرنسيّ.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وسيجارةُ الغولواز في يده كالعادة، لالتقاط صورةٍ وسط أربعة لاعبين ضخام، ملامحُهم شرّيرة، يرتدون زيّاً أبيض ويعتمرون قبّعات البيريه. هذه المرّة، في الصورة، كان هو الوحيد الذي يبتسم، أمّا العمالقة، فقد ظلّوا جامدين كالرّخام. ولاختتام ذلك اليوم، وفيما كان حفلٌ موسيقيّ تُعزَف فيه أعماله ويذهبُ ريعها لإحدى المؤسّسات الخيريّة يوشك أن يبدأ، تأخرّ راڤيل كالعادة. انتظروه طويلاً، وحين وصلَ أخيراً، اكتشف مذعوراً أنّه قد نسيَ منديل الجيب الخاصّ ببذلته، وكانت هذه أيضاً مشكلة. اقترح عليه كاسادسو عبثاً أن يعيرَه منديله. فأجاب راڤيل بأنّ ذلك مستحيل. بالطّبع، كان ذلك مستحيلاً، فالمنديل لا يحمل حروف الاسم الأولى نفسها. ولكن في نهاية المطاف لم تكن تلك بالمشكلة الكبيرة؛ ذلك أنّهم، منذ اليوم التالي، اندسّوا في سيارة إدموند غودان، والد ماري، وكانت من طراز «هسبانو»، ومضوا ليشاهدوا، في حلَبَات سان سِباستيان، مصارعي الثّيران مارسيال لالاندا (قطْع أذن الثّور وانقسام الجمهور) وأنريكي تورّيس (تصفيق وصفير)، ونيكانور بيّالتا (صمت وصمت).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

حين عاد إلى باريس، أثارَ ما وصل إليه من مجدٍ رغبَته في مضاعفة العمل. فأثّث، وقد تعب من الذهاب والإياب بين مونفور وباريس، استوديو صغيراً في بيت أخيه في لوڤالوا، كي يعمل فيه. كان ليريتز هو من صمّم الديكور بأسلوبٍ يستلهم عالَم البواخر من جهة، وديكورات عيادات الأسنان من جهة أخرى؛ أثاثٌ من النيكل ومقاعدُ أنبوبيّة، بُسُطٌ دائريّة، منضدةُ شرابٍ متنقّلة، بكراسي عالية، خلّاط، كؤوسٌ كبيرةٌ وزجاجاتٌ من كلّ لون، ولا لوحاتٍ على الجدران، حتّى ولو مزوّرة مثلما هي الحال في مونفور، بل بعض النقوش اليابانيّة وصور فوتوغرافيّة لمان راي فقط. وعلى كلّ حال، فإنّ راڤيل لن يطأ أرض هذا الاستوديو إلّا لماماً.

قد يكون هذا التألّق أصابه أيضاً بشيء من الدوّار، فها هو راڤيل، السّاخرُ عادةً والأقربُ إلى اللاّمبالاة، قد بدأ يضِلّ قليلاً. فوسط انشغاله التّام في الشّهور الأخيرة، وحتّى قبل أنْ يُنهيَ المقطوعتَين التوأمين، خطّط للقيام بجولةٍ عالميّةٍ يعزف خلالها الكونشيرتو الذي كتبه ليدَين اثنتين -يديْه هو. أراد أنْ يقدّمه في كلّ القارّات. قارّات

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

العالم الخمس، ألّحّ قائلاً لمن يريدُ أنْ يسمع: الخمس. لكنّ جسده ازداد ضعفاً في تلك الأثناء، وحين لم تتحسّن الحال، تدخّل الأطبّاء، ولِقلقهم بشأن حالته الصحيّة، عارضوا بشدّة هذا المشروع. فلنهدأ! تحذيراتٌ وتشخيصات، فحوصٌ ووصفاتٌ وعلاجات، حُقنُ أمصالٍ وراحةٌ تامّة.

ليس لوقت طويل: فقد أصرّ، خلافاً لرأي الأطبّاء، على الانطلاق في جولةٍ لعزف هذا الكونشيرتو، ترافقهما مارغريت لونغ. وفي النهاية، ستكون هي من يؤدّيه، لا هو كما كان يأمل. هذا مع أنّه استمات في محاولة اكتساب براعة العزف المطلوبة، ممضياً السّاعات في إنهاك أصابعه، عاكفاً على دروسٍ لِيسْت وشوبان كي يجوّدَ أداءه، ولكن بلا جدوى: كان عليه الاعتراف بأنّ موسيقاهُ تجاوَزت قدراته هذه المرّة. لقد أصبحت فائقة التعقيد بالنسبة ليديه، اللتَين ستكتفيان بقيادة الأوركسترا. توجّب السّفرُ مع مارغريت إذن، وهذا ليس بالأمر السّيئ من منظور العزف، لكنّه أقلّ ظرفاً بكثير من منظور الحياة، فمارغريت امرأة مُستحيلة المعاشرة، متسلّطة، مُعتدّة بنفسها، من نوع

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المربّية التي يجعلونها تلازمك في كلّ عطلة، ناهيك عن أنّها بشِعةٌ كالبُومة. ثمّ إنّ الجولة لن تشمل قارّات العالم الخمس، بل ستقتصر على أوروبّا؛ ولكن في ما يزيد على عشرين مدينة. غيرَ أنّ الأمرَ كالعادة، سينجح تماماً: من لندن إلى بودابست، ومن براغ إلى لاهاي. كان نجاحهما عظيماً، هو على المنصّة، وهي على البيانو، في كلّ مكان.

في القطار الموصلِ إلى فيينّا، فعلَ ما كان قد فعله في شيكاغو، إذ انتبه إلى أنّه قد نسيَ أيضاً حذاءه اللّمّاع: لا يمكن الظهور أمام الجمهور بدونه. ليستْ المسألةُ صعبةً إلى هذا الحدّ، ستجدُ مثْله هناك، قالت مارغريت، غير مدركةٍ أنّه لا يمكن العثورُ على حذاءٍ بمقاسٍ صغيرٍ جدّاً في أيّ مكان. هذه المرّة لن تكون مغنّيةٌ مُخلصةٌ، بل سائقُ القطار التّالي -بعد أن أُبلغت باريس بالأمر- من سيتدبّر أمر استعادة الحذاء. في فيينّا، دُعيَ مع مارغريت إلى عشاءٍ كبيرٍ تبعته أمسيةٌ على شرفهما في بيْت بول فيتغنشتاين، عزف خلالها هذا الأخيرُ -وهو من كلّف راقيل بالعمل وأُهديَ العملُ إليه- الكونشرتو بيده. بدا العشاء مثل كلّ عشاءٍ من هذا النّوع: في البداية يكون شيئاً مُملّاً بارداً

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نخشاه؛ لكنّنا نتهَنْدَم من أجله، نصِل ونُقدِّمُ لعددٍ كبير من النّاس بالكدّ نلتقطُ أسماءهم وسرعان ما ننساها، ويتملّكنا شعور قويّ بالمَلَل، ثمّ نتقبّل الأمر، وننشطُ بمساعدة الكحول، حتّى إنّنا نبدأ بالاستمتاع قليلاً، وشيئاً فشيئاً، من حديثٍ إلى آخر، يغدو الأمر رائعاً بعد ساعةٍ أو اثنتين، ولا نعود مستعديّن لمبارحة مقعدنا بأيّ ثمن.

باختصار، تسير الأمور دوماً بالطريقة ذاتها، غير أنّ مارغريت سمِعَت فيتنغشتاين يقول، في ذلك المساء، وكانت جالسةً إلى يمينه، إنّه اُضطرّ لإدخال بعض التّغييرات على ذلك الكونشيرتو، الذي لم تكن هي تعرفه بعدُ. اقترحت عليه مارغريت، وقد افترضت أنّ إعاقة عازف البيانو قد قادته لإجراء بعض التبسيطات، أنْ يُخبر راڤيل، في كلّ الأحوال، بتلك التغييرات، لكنّه لم يصغِ إليها. غادروا المائدة إلى قاعة الموسيقى. منذ بداية العزف، حيث كانت مارغريت تتابع الكونشيرتو من خلال مدوّنة النوتات، جالسةً هذه المرّة إلى جانب مؤلِّفه، قرأَتْ على وجه راڤيل الذي كان يزداد امتقاعاً العواقبَ المؤسفة لمبادراتِ العازف الأقْطع. ذلك أنّ فتغنشتاين لم يكن

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قد بسّط العمل كيْ يتلاءم مع قدراته، بل بالعكس رأى فيه، لا بُدّ، الفرصة الملائمة لإظهار كم هو عازفٌ ماهرٌ على الرغم من إعاقته. فعِوضَ أنْ يلتزم بالعمل ويبذل ما في وسعه لإخراجه بالشّكل اللائق، ها هو يبالغُ كثيراً، مضيفاً إليه توقيعاتٍ نغميّةً سريعةً هنا، ومازوراتٍ هناك، ومُطرّزاً إيّاه بزخارفَ موسيقيّة، وأرجحاتٍ إيقاعيّةٍ ومحسّناتٍ أدائيّة أخرى لم يطلبْها منه أحدٌ؛ حِلياتٍ لحنيّةٍ من قبيل النّوتات القصيرة التي تسبق النّوتة الرئيسة أو تعقبها، ومسرعاً بلا توقّف نحو النّوتات العالية كي يُظهر كم هو بارعٌ وذكيّ، وكم احتفظ بلياقته، وكم يقول لكم جميعاً: إنّني لا أبالي بكم. أمّا راڤيل فقد شحَب وجهُه إلى درجة البياض.

في نهاية الحفل، حاولت مارغريت من فورها، وقد خمّنت أنّ مشكلةً ستقع، الالتفافَ على ذلك بإثارة موضوعٍ آخرَ مع السفير، ولكنْ لا فائدة. اقترب راڤيل ببطءٍ من فيتغنشتاين، لم ير أحدٌ على وجهه مثل تلك الملامح منذ أن اقترب من توسكانيني. ولكنّ هذا ليس جيّداً -قال ببرود. ليس جيّداً أبداً. ليس هكذا هو الأمرُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أبداً. انظر-قال فيتغنشتاين وقد أراد الدّفاع عن نفسه- أنا عازفٌ قديمٌ وبصراحةٍ فإنّ المقطوعة بما هي عليه لا تُحدث أيّ صدى. أمّا أنا، فمؤلِّفٌ أوركستراليٌّ قديم وأستطيع أنْ أقول لك إنّها تحدث صدىً جيّداً، أجاب راڤيل وقد غدا أكثر عدائيّة. أمّا الصّمت الذي خيّم على القاعة إثر هذه الكلمات فقد كان صداه أكبر: شعور بالضّيق تحت النّتوءات الزخرفيّة، ارتباكٌ لدى طبقات الجبْس، قمصانُ بذلات السّموكن شحَبتْ، وحواشي الثياب الطّويلة تجمّدت، ونُدُل الفندق أخذوا يتفحّصون أحذيتهم. ارتدى راڤيل معطَفه من غير أنْ ينطق بكلمةٍ وغادر المكان قبل الأوان، جارّاً وراءه مارغريت التي تملّكها الاضطراب. كانوا في فيينّا، ذاتَ ليلةٍ من ليالي يناير، والطقسُ رديء، ولكنْ لا يهمّ. أعاد السيّارةَ التي وضعتها السفارةُ تحت تصرّفه، مراهناً على المشي قليلاً في الثّلج كي يهدأ. وعادَ إلى الفندق ماشياً.

في اليوم التالي، ظلّ على القدْر ذاته من التوتّر وهو ينتظر قطار العودة، يده اليمنى مُنشغلةٌ بسيجارة الغولواز بينما اليُسرى، التي ترتدي القفاز، تدعك لا شعوريّاً

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

القفّاز الأيمن. لحظة المُغادرة، على رصيف المحطّة، كانت
مارغريت تفتّشُ في حقيبتها بعصبيّة متزايدة ووجهها آخ
في الشحوب. غمْغمت وأصابعها تتشابك في قاع الحقيبة
هذا سخيف! إنّني لا أجدها. فسألها راڤيل بنبرة خلَت
من اللّطف، ماذا؟ ما الذي لا تجدينه؟ التّذاكر، قالت
مارغريت، لا يمكن أنْ تكون في مكان آخر، لا بدّ أنّ
هنا، ولكن لا، أين وضعتُها يا ترى. إنّكِ حمقاء حقّاً
مارغريت، قال راڤيل ببرود وقد بدأ يتوتّر. معتوهة، أكّ
قائلاً بهدوءٍ وهو يطوي الصحيفة أربع طيّات. أخذت
مارغريت ترمشُ وقد أجفلتها هذه القسْوة المفرطة التي
لم تعتدها منه. ولكنّه استمرّ فيها مع ذلك. لقد أضاعت
التّذاكر هذه السّافلة، غمغم لنفسه، لا بدّ أن تنسى على
الدوام شيئاً ما. ها هي! قالت أخيراً مارغريت، وهي
تُظهر تذاكر السّفر المُثبّتة في فراء يديْها: لقد وضعْتُها هن
زيادةً في الحرص. مستعيداً على الفور بروده وهدوء
النسبيّين، استغرقَ من جديد في صحيفته من دون أن
يُبديَ أيّ اهتمام بمرافقته التي كانت تقول تفاهاتٍ رسميّ
الطّابع، فيما ترمقه بنظراتٍ خاطفةٍ وقلقة. حتّى إنّه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يلتفت لآرثر روبنشتاين[1] الذي جاء لاهثاً، وقد أُبلغ في اللحظة الأخيرة بوجود راڤيل في فيينّا، فوصل راكضاً، على أمل أنْ يُصافح المعلّم قبل مغادرته؛ لكنّ المعلّم صعد إلى القطار وكأنّه لم يكن موجوداً.

ومع ذلك، كان من الأفضل أن تكون مارغريت هي من يهتمّ بأمور التذاكر، لأنّه عادةً ما ينسى كلّ شيء: مواعيدَه، وأحذيته اللامعة، وحقائبه، وساعته، ومفاتيحه، وجوازَ سفره، وينسى بريدَه في جيبه، الأمر الذي قد يتسبّب في بعض المشاكل؛ فراڤيل كان يُستَقبَلُ في كلّ مكان، ويحظى بالكثير من الحفاوة، والدعوات من أصحابِ النفوذ، لكنّه اعتاد أن يُبقيَ في سُترته الدّعواتِ الرسمّيةَ التي يهملُها، فينتظرونه ولكن عبثاً. لم ينزعج ملك رومانيا من ذلك كثيراً، لكنّ رئيس الوزراء البولنديّ جعل منها قصّة طويلة: إشكالاتٍ دبلوماسيّة، وذُعراً لدى قناصِل فرنسا، وتدخّلاتٍ من السّفراء. لطالما نسيَ كلّ شي، لطالما كان شارد الذهن، ودائماً ما عانى من ثغراتٍ في

(1) آرثر روبنشتاين Arthur Rubinstein (1887–1982): عازف بولنديّ ثمّ أمريكيّ الجنسية، من كبار عازفي البيانو في القرن العشرين.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ذاكرته بخصوص أسماء الأعلام، لاجئاً في أحيان كثيرة إلى الصّور كي يُشير إلى مكانٍ أو شخصٍ يعرفه جيّداً مثل مدام ريفلو: السيّدة التي تعتني ببيتي، كما تعرف، سيّئةِ الطّباع تلك. وحتّى مارغريت نفسها: تلك التي لا تجيد عزف البيانو، تعرفُ عمّن أتكلّم، وزوجُها مات في الحرب. ومع علم مارغريت بكلّ هذا إلّا أنّها وجدت أنّه صار ينسى الأشياء أكثر فأكثر. من جهتها، كانت هيلين قد لاحظت العام السابق أنّ راڤيل يُبدي، من وقتٍ لآخر، نوعاً من الغيابِ حتّى عن الموسيقى التي يؤلّفها.

لكنّه مع ذلك، لم يكن ينسى ما يُعدّ الأهمّ في نظره: فمنذ عودته إلى فرنسا، عارضَ صراحةً مجيء فيتغنشتاين الذي كان يريد، بكلّ ثقة، القيام بجولةٍ صغيرة في باريس. فوجّه إليه رسالةً مُختصرةً وصف فيها أداءه بالتّزوير، وطلب إليه بلهجةٍ آمِرةٍ وقاطعةٍ أنْ يلتزم منذ تلك اللّحظة فصاعداً التزاماً صارماً بعزف عمله كما هو مكتوب بالضبْط. وحين ردّ عليه فيتغنشتاين وقد شعر بالإهانة، بأنّ العازفين لا ينبغي أنْ يكونوا عبيداً، أجابه راڤيل بكلمتَين: العازفون عبيد.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ها هو يبلغ السّابعة والخمسين من العمر. كان قد اختتم منذ ثلاثة عشر عاماً مؤلّفاته لآلة البيانو بعمله «ديباجة»[1]، وهي مقطوعة لا تتعدّى خمس عشرة مازورة، ولا تتجاوز مدّتها دقيقتين، ولكنّها لا تتطلّب أقلّ من خمس أيادٍ لتأديتها. لقد صفّى حسابَه مع قالبَي السوناتا والرباعيّة. وبعد أنْ ذهب بقدرته على التوزيع الأوركسترالي إلى أقصاها في عمله البوليرو، إلى حدّ المجازفة بتحطيم لُعبته، ها هو قد انتهى من حلّ مشكلة الكونشيرتو، وهي المشكلة الوحيدة التي كان قد تأخّر في مواجهتها. فما العملُ الآن؟ حسناً، في ذلك الحين، كان أمامَه مشروعان: الأوّل موسيقى لفيلمٍ عن دون كيخوته، كان يُفترض أن يخرجَه بابْست[2] ويقوم فيه شاليابين[3] بدوْر الشخصيّة التي يحمل عنوانُ الفيلم اسمَها، فيما يكتب حواراته بول مورون. أمّا العمل الآخر، والذي كان يحمل في تلك اللحظة العنوانَ

---

(1) *Frontispice*.

(2) غيورغ ڤيلهيلم بابست Georg Wilhelm Pabst: مخرج وكاتب سيناريو ومنتج نمساوي (1885–1967).

(3) فيودور شاليابين Feodor Chaliapine: مغنّي أوبرالي وممثّل روسي كانت لديه أيضاً موهبة كبيرة في الرسم (1873–1938).

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الرّمزي «متاهة 39»[1]، فإنّنا لا نعرف عنه سوى ما تطوّع راڤيل بقوله ذات يوم لمانويل دي فايا[2]: كان يفترض أنْ يكون هذا طائرةً من سلّم سي.

(1) *Dédale 39*.

(2) Manuel De Falla مؤلّف موسيقيّ إسباني (1876–1946). ارتبط بصداقة مع راڤيل خلال إقامته في باريس من 1907 إلى 1914.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

8

باريس، في ليلة من ليالي أكتوبر، السّاعة الواحدة فجراً. أمام مسرح الشانزلزيه، كان السائق جان ديلفيني، ببشرته الشديدة الحمرة وقبّعته الباهتة، قد أقَلّ للتوّ زبوناً في سيّارته الديلاهاي 109. أخبره الزّبون بالعنوان: فندق أثينا، 12 شارع أثينا. وانطلقت السيّارة، لم تكن المسافة بعيدة. أخذ الزّبون الذي جلس في الكرسي الخلفيّ يتأمّل الطرقات التي تتعاقب تحت ناظريْه، ثمّ ألقى نظرة نحو السائق الذي كان يفصله عنه سائرٌ زجاجيّ، ما لبث أن توقّف عن تأمّل المشهد، مستغرقاً في فكرةٍ خطرت له. كانا على وشك الوصول، هبطت السيّارة شارع أمستردام، ثمّ اتجهت شمالاً عبر شارع أثينا حيث ظهرت فجأةً وبسرعة، من التقاطع، سيّارةٌ أجرةٍ أخرى، من طراز رينو سلتاكاتر،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يقودها سائقٌ اسمه هنري لاسيب، تميل بشرته إلى الصفرّة ويعتمر قبّعة بمربّعات.

كان الاصطدام الجانبيّ عنيفاً جدّاً، فتحطّم زجاج السيّارة الداخليّ بفعل الصّدمة وتحوّل إلى نصلٍ ذي حدّين، وأوشك أن يشطرَ الرّاكب راڤيل إلى نصفين. لكنّه لم ينجح تماماً في ذلك، مكتفياً بدقِّ ثلاثةٍ من ضلوعه، فأحسّ بقوّةٍ أنّ صدره قد انخسف مثل حدبةٍ معكوسة الاتجّاه، وبكَسْر ثلاثٍ من أسنانه، بينما تكفّلت بعض شظايا الزّجاج بتمزيق وجهه، لا سيّما الأنف وقوس الحاجب والذّقن. توجّهوا لأقرب صيدليّة، حيث ضُمّدت جراحُه مؤقّتاً، قبل نقله إلى مشفى بوجون الذي تركه يعود إلى فندقه، بعد خِياطة جروحه. ولكن في اليوم التالي، وقد بدا أنّه يعاني من رضوضٍ داخليّة، فضّل طبيبه أن يرسله إلى عيادة في شارع «بلوميه» كي يخضع للمراقبة.

في الشهور الثلاثة التالية، لم يفعل راڤيل أيّ شيء البتّة. كانوا يعالجونه ويضمّدون جراحه ويداوونه، كما أصلحوا له طقم أسنانه. كانوا يعتنون به عنايةً فائقةً فيما ظلّ هو مشدوهاً. كان كلامه قليلاً ولم يشكُ من شيءٍ قطّ، إلّا

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنّه كان يلاحظ، من حين لآخر، أنّ فكره يخونه أحياناً، ولا يتّضح دائماً على النحو المعهود. صحيحٌ أنّه كثيراً ما كانت تبدو عليه في ما مضى علاماتُ الشرود، لكنّها باتت تتكرّر بوتيرة أكبر. كانوا يجلبون له عند استيقاظه صحيفة «لوبوبولير»، التي كان يقرأها بتمعّنٍ حتّى تلك اللحظة، كلّ صباح من أوّلها إلى آخرها، ولكنْ يبدو أنّه بات أقلّ اهتماماً بها من ذي قبل، إذ صار يُلقي على الصحيفة نظراتٍ متحفّظة، مكتفياً بتقليبها. وبما أنّه عملَ كثيراً في الأعوام الأخيرة، لم يتوقّف الأطبّاءُ عن تحذيره من أنّ حالته لن تتحسّن نظراً لإرهاقه المُزمن. والحقيقة أنّها أخذت تتدهور على نحوٍ خطير بعد هذا الحادث. وقد أوضح أخيراً أثناء خضوعه لمختلف الفحوص، أنّ أفكاره، أيّا كانت، تبدو له دوْماً حبيسة دماغه. كان هذا أمراً طبيعيّاً على كلّ حال، بعد صدمةٍ كتلك. وقد شاء المعنيّون افتراض أنّه سيتجاوز ذلك. فأُخضِع لمزيد من الفحوص؛ فحوصٍ بلا جدوى. كما نصحه جميعُ أقاربه بعلاجات مختلفة وكان كلّ واحد منهم يؤكّد أنّ العلاج الذي يقترحه هو الأفضل: الكهرباء، الحُقَن، التنويم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المغناطيسيّ، الطبّ التجانسيّ، العلاج الطبيعيّ، الإيحاء، علاوةً على كثير من العقاقير التي يحارُ المرء بينها، ولكنْ، على ما يبدو، لم يجدِ شيءٌ من هذا كلّه نفعاً.

بانقضاء تلك الشّهور الثلاثة، وفي الوقت الذي عاد فيه العنيد فيتغنشتاين إلى باريس، بدا أنّ حالة راڤيل قد تحسّنت بعض الشيء؛ لا بل بدا أنّه تصالح مع الأقطع -إلّا أنْ يكون الأمر لم يعد يعنيه في آخر المطاف- ذلك أنّه وافق على قيادة أوركسترا سيمفونيّة باريس في الحفل الذي قدّم فيه الآخر، في قاعة بليِّيل، الكونشرتو الذي كان يمتلك حقوقه الحصريّة لمدّة ستّ سنوات. غير أنّ ذلك لم يدفع فيتغنشتاين -المنحني تماماً على آلة البيانو، وكمّهُ الفارغ مدسوسٌ في جيبه، كعادته- إلى الامتناع عن تجميل التوزيع الموسيقيّ على هواه. فقد استمّر في تجاوزاته، باحثاً عن تأثيراتٍ تُظهر براعته، مُضاعفاً الزّخرفات والاهتزازات، مجمّلاً عباراتٍ موسيقيّةً لم تطلب تدخّلاً من أحد، وكانت يده اليُسرى تصرّ على الشّرود إلى يمين لوحة المفاتيح، حيث لا شيء تفعله هناك، أما راڤيل، اللّامبالي في الظّاهر إزاء ذلك، فكان مُتشبّثاً بحامل النوّتة

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

الموسيقيّة، مُنظِّماً الإيقاع، وكما في كلّ مرة حين يقود الأوركسترا، مُرتبكَ الحركات بعضّ الشّيء. لم يبدُ عليه أنّه حاضرٌ تماماً؛ بل يمكننا القول، بالنّظر إلى أنّ العصا في يُمناه كانت تنتقل إلى يده اليُسرى حين يقلِب صفحةً من المدوّنة، أنّه لم يكن يحفظُ مقطوعته غيباً.

استمرّ شعور راڤيل بالتّعب المُفرط، فعاد ثانيةً إلى سان جان دو لوز في إجازة، إذ دائماً ما تتحسّن الأحوال حين يعود إلى موطنه. كان المحيط يمتدّ مُتثائباً، والسّماءُ الهائلة تتوسّطها شمسٌ خالصة، وسامازوي وماري غودان حاضرَين لاستقباله. إلّا أنّ كلّ شيء بدأ ينهار خلال ذلك الصيّف تحديداً. فها هي بعض الأفعال الاعتياديّة، التي كان يقوم بها في الأصل بحيويّةٍ ومن دون تفكير، قد أخذت تفتُر، وتتباطأ، وتفتقر للدّافع. ففي الكتابة مثلاً، بدا وكأنّ راڤيل، الذي كان شديد العناية بشكلها وأسلوبها، يجد صعوبةً في خطّ الكلمات، حتّى حين ينحصر الأمر في إعداد قائمة التسوّق. وذات أحد، في حلبة مصارعة الثيران، وبصحبة عائلة غودان، فتّش طويلاً في جيوبه

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

عاجزاً عن أن يشرح للآخرين عمّ كان يبحث تحديداً، وحين أخرج إدمون سيجارة من جيبه، انتزعها منه على الفور: هذا ما كنت أريد. وهناك أيضاً الشاطئ، الذي كان يحبّ الانطلاق منه، وهو السبّاح الماهر، في مغامرةٍ نحو البعيد، لكنّه لاحظ أنّه لم يعد قادراً على القيام ببعض الحركات في الماء. فقد أصبحت مختلفة، وتأخذ مجرىً غير متوقَّع. وكان على شاطئ المحيط أيضاً أنْ اختلَّت حركتُه، حين أراد أنْ يعلّم ماري فنّ الزَّلَج[1]، فأصاب الحجرُ وجهَ صديقته.

بعد ثلاثة أيّام على هذا الحادث، أصرّ بعناد على العودة للسّباحة في المحيط، فغاب عن أنظارهم في عرض المياه، مخاطراً بحياته، فلمّا لحقوا به وجدوه عائماً على ظهره، تاركاً الماء يجرفه بانتظار النّجدة. وحين أخرجوه من هناك وسألوه عن حاله، ردّ، ببساطة، بأنّه لم يعد يعرف كيف يسبح. أمّا الأطبّاء الذين احتاروا في أمره، فقد اقترحوا عليه أن يُكمل إجازته في منطقة أكثر برودة، أن يستبدل مثلاً بحر المانش بالمحيط الأطلسي؛ فشواطئ الشمال

(1) قذف الحجر بحيث يتقافز على سطح الماء باستواء.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أكثر إنعاشاً، حسب رأيهم. تمّ تدبُّر أمر دعوته إلى توكيه، وبالفعل، في غضون شهرٍ بدا أنّ كلّ شيء يسير نحو الأفضل. وصار بوسعه العودة.

ربّما تحسّنت الحال قليلاً، لكنّه لاحظ جيّداً أنّ خطّه في الكتابة يزداد سوءاً، أنّه يفقد أناقته ويغدو مهزوزاً وأخرقَ، وفي طريقه لأن يصبح عصيّاً على القراءة. وفي سعي السُّرياليّين بجِدٍّ، آنذاك، إلى الإثارة، خطر لهم أن يدعوا بعض المشاهير للمشاركة في واحدة من نوادرهم الاحتفاليّة: هذه المرّة سيجمعون بصماتِ أيدي عددٍ من الشخصيّات المعروفة ويطلبون من خبيرِ التعليق عليها. كان هنالك شخصيّاتٌ مختلفة، من دوشان[1] إلى هكسلي ومن أندريه جيد إلى سانت إكزوبِري. ومع أنّ بريتون كان متشكّكاً إزاء الموسيقى إلى حدٍّ بعيد -هذا إنْ لم يكن لا يفقه من أمرها شيئاً- فقد حَرص على مشاركة راڤيل،

(1) مارسيل دوشان Marcel Duchamp (شاع اسمه بالعربية على هيئة «مارسيل دوشامب»، خلافاً لنطق اسمه بالفرنسية) (1887–1968): رسّام فرنسيّ ثمّ أمريكيّ الجنسية، كان له تأثير كبير على الحركتين الدادائية والسرياليّة، ويُعدّ من أكبر رسّامي القرن العشرين. والكتّاب الثلاثة المذكورون في العبارة ذاتها معروفون.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

المؤلَّف الموسيقيّ الوحيد الذي وقع عليه الاختيار. وكان راڤيل، الذي بدا معافىً، مسروراً جدّاً لمشاركته في هذا الحدث. فَوصَلَ مُبتسماً، بشعره المسرّح بعنايةٍ فائقةٍ كما كان عليه دوماً، وبذلته الرماديّة الداكنة الثنائيّة الأزرار، العينُ مُتيقّظة والخطوةُ رشيقة، متأثراً بحضوره أمام السّرياليّين الذين يثيرون لديه اهتماماً أكبر ربّما ممّا كان يبدي. تقدّم راضياً للعمليّة، فبسط الخبيرُ يَديْ راڤيل على طبقةٍ رقيقةٍ من سخام الدّخان ثمّ على ورقة صفحة بيضاء، وانتهى الأمر.

ولكنّه في الواقع لم ينتَهِ تماماً، إذ كان على كلّ شخص أنْ يوقّع على بصمته الخاصة، وحين جاء دورُ راڤيل وقدّموا له حاملة الرّيشة، صدرت عنه حركةٌ تنمّ عن التراجع. لا أستطيع، قال ببساطة، لا أستطيع التوقيع. سيرسِلُ أخي لكم توقيعي غداً، ثمّ التفت نحو فالنتين هوغو التي كانت ترافقه: هيّا يا فالنتين، لِنغادرْ بسرعة. خرج بصمتٍ تحت المطر الغزير، واستقلّ على عجلٍ سيّارة الأجرة، التي مضت مبتعدة، فيما بقيت فالنتين على الرّصيف. تبادل السّرياليّون النّظرات، أمّا الخبير -كانت خبيرةً بالأحرى،

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

وهي السيّدة الدكتورة لوت وولف- فقد احتُفِظ بتعليقها، وكان غايةً في الغباء.

بعد فترة بسيطة، انتهز المنتج كانيتّي فرصة وجود الرّباعيّ غاليمير[1] في باريس ليقترحَ على شركة بوليدور تسجيل مقطوعةِ راڤيل الموسيقيّة الرباعيّة[2]، وقد أَبلغ هذا الأخيرَ بأنّه سيكون في غاية الامتنان له إنْ حضَر للإشراف على الجلسات. حسناً، موافق، قال راڤيل. جلس في غرفة التحكّم، وحضر التّسجيل دون أن يبدي رغبة في قيادة العازفين. وسواء استحسن ما كان يسمعه أم لا، فإنّه كان يعبّر عن ذلك من بعيد. هذا جيّد، يقول أحياناً، وأحيانا أخرى، هذا أقلّ جودة، أو ينبغي الإعادة. كان يوضِّح بعض التفاصيل، ويصّحح خروجاً بسيطاً عن المقياس أو سرعةً الإيقاع. وبعد كلّ حركةٍ موسيقية يُسمعونه تسجيلها، كانوا يقترحون البدء من جديد إنْ كان يرغبُ في ذلك، ولكن بما أنّه لم يكن يرغب كثيراً

(1) فرقة رباعية وترية شهيرة أسّسها عازف الكمنجة الأميركي من أصل نمساوي فيليكس غاليمير Felix Galimir (1910–1999) وحملت اسم عائلته.

(2) *Le Quatuor*.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

في الإعادة، فقد أنهوا كلّ شيء خلال فترة ما بعد الظهر. وما إنْ انتهى الموسيقيون من مهمّتهم، وأخذوا يوضّبون آلاتهم في حافظاتها، ثمّ يوضبّون أنفسهم في معاطفهم، حتّى التفت راڤيل نحو كانيتّي: لقد كان عملاً جيّداً، جيّداً حقّاً، هلاّ ذكّرتني باسم المؤلِّف؟ لسنا مضطرّين لتصديق هذه الحكاية.

خضعَ لفحوص جديدة لم تُظهر وجود علّةٍ عضويّةٍ ظاهِرة، فأُرسِل ليستجمّ في جبال سويسرا. كان يعرف مثل تلك الجبال، حيث كان قد أمضى بعد الحرب شهراً في مصحٍّ ليُعالَج من إصابةٍ بمرض السُّل، من دون أن يشار أبداً إلى المرض بهذا الاسم، وكانت الوصفة للتغلُّب عليه آنذاك حمّامات الشمس. أمّا هذه المرّة، فحمّام الماء السّاخن مع عصارة التّنوب. كان يفُترضُ أن يكتب رسالةً إلى العائلة دولاج، أصدقائه الذين كانوا ينتظرون كلمة منه، لكنّ القلق بدأ ينتابُهم حين تأخّر وصولُها. ولمّا تسلّموها أخيراً، سافروا إلى سويسرا للقاء راڤيل الذي كان عليه أن يفسّر لهم ما حدث: لقد احتاج ثمانية أيّام كي يكتب تلك الرسالة، حيث اضطُرّ إلى البحث عن كلّ كلماتها في

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

قاموس «لاروس» ليتمكّن من نسخها.

إلى هنا وصَلَت به الحال. لم تُجدِ الإقامةُ في سويسرا نفعاً. وصار يحدُث أيضاً، حين يذهب إلى حفل يُقدّم فيه واحدٌ من أعماله، أن يسأل إنْ كان حقّاً من تأليفه أو -وهذا ليس بأفضل- أنْ يهمسَ لنفسه: كان عملاً جميلاً. وبما أنّه بات يعرف أنّه لم يعد يستطيع كتابة اسمه، فقد صارَ حين يُقبل بعض الشبّان نحوه عند الخروج من الحفل طامحين إلى الحصول على توقيعه، وأقلامهم تلمعُ كالسّلاح، يعبرُ من وسطهم تحت حماية هيلين مثل رجلٍ آليّ، دون أنْ يبدو عليه أنّه يسمعهم أو يراهم، متألّماً بسبب هذه الهيئة المُتعالية، السّاخِرة، والمُصطَنعة من أجل حمايته، أكثر من ألمِه النّاجم عن وعْيه بمرضه. مؤخَّراً، وإذْ لم يعد قادراً على أنْ يحبّ شيئاً سوى العزلة، صار يمضي ساعاتٍ على شرفته في مونفور، في أريكة، ونظرهُ شاردٌ نحو الوادي الذي كان منظره هو ما دفعه إلى المجيء والاستقرار هناك. كانت هيلين تنضمّ إليه، قلقةً بشأنه، وتسأله لِمَ هو هناك. فيردُّ ببساطة بأنّه ينتظر، لكنّه لا يحدّد أيّ شيء ينتظر. كان يعيش في ضبابٍ يخنقُه كلَّ يوم أكثر قليلاً، على الرّغم من

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أنّ هنالك نشاطاً واحداً لم يبارحه: كان يذهب كلّ يوم للمشي طويلاً في الغابة. ولا يضيع فيها أبداً. كان العالم وأشياؤه هو ما يضيع منه. ذات مساء في عشاءٍ مع ناشره، التقط شوكته بأسنانه، وانتبه لذلك فوراً، فنظر بحزنٍ إلى مارغريت التي كانت بجانبه.

باختصار، لم يكن بخيرٍ البتّة. قلِقت إيدا روبنشتاين بشأنه وتدخلّت في الأمر. لم يكن ما تتّصف به إيدا من كرم بأقلّ ممّا تتّصف به من طولٍ ورشاقةِ قدٍّ وجمال، وكان هذا الكرمُ كافياً لكي تحكم بأنّ على راڤيل السّفر لتغييير الجوّ، وتُقرِّر التكفّل بالأمر. ستكونُ الرّحلة التي تنظّمها له رحلةً كبيرة إلى إسبانيا ثمّ إلى المغرب، وسيكون ليريتز من سيرافقه. فلْنَنطلق. في طنجة، بدا أنّ الأحوال تتحسّن. وفي مراكش، خلال ثلاثة أسابيع، كان يجوب الأسواق في كلّ الاتّجاهات دون أن يتوه، تماماً كما لم يكن يتوه في غابة رامبويّيه، ثمّ عند العودة إلى الفندق، ينجح في كتابة ثلاث مازورات موسيقيّة أمام ليريتز الذي استعاد الأمل. كان يلقى الحفاوة دائماً وأينَما مرّ، إلى درجة الاحتفاء به من دون قصد، مثلما حدث في ذلك اليوم، حين سمِع، على ما

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يبدو، عامل تلغراف يصفّر لحن البوليرو وهو يشقّ طريقاً لنفسه، وسط بحرٍ من الدراجات الهوائيّة. لسنا مضطرّين إلى تصديق هذا أيضاً. أمّا في فاس، فقد استقبله المُقيم العامّ الذي اقترح عليه، وقد اصطحبه لزيارة المدينة، أن يستلهم أجواءها. آه، قال راڤيل، لو ألّفت شيئاً بالعربيّة، فسيكون عربيّاً أكثر من كلّ هذا. كان ليريتز يخبر إيدا روبنشتاين بكلّ شيء عبر البطاقات البريدية التي يرسلها، وهي، من جهتها، تهاتفهما كلّ يوم. كان ليريتز يؤكّد أنّ الأمور على ما يرام: يبدو راڤيل سعيداً جدّاً بهذا الاستقبال. إنّه يعمل قليلاً، حتّى إنّه كتب رسالة إلى أخيه. أراد ليريتز أن تكون أخباره مُطَمْئِنةً، لكنّ راڤيل في الواقع كان لا يزال واهياً من التّعب، بَرِماً بكلّ شيء، لا يتكلّم إلّا نادراً ويشعر أكثر من أيّ وقت مضى بأنّه خارج العالم، لا سيّما وأنّ هذه الوجهة من العالم كانت تعجُّ بالغبار والضوء والحركة. صحيحٌ أن راڤيل بدا، مرّة أخرى، أفضل حالاً أثناء عودته عبر إسبانيا، إلى درجة أنّه حين حضر جنازة دوكاس التفت نحو كوشلان وطمأنه قائلاً: لقد دوّنتُ تيمةً موسيقيّة، ما زال بوسعي أنْ أؤلّف الموسيقى. لكنْ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

هو من لَسْنا مضطرّين لتصديقه هذه المرّة.

لسنا مضطرّين لذلك، لأنّ الأمور تسارعت وزادت سوءاً: بات يصعب عليه التحكّم بأغلب حركاته، فقدَ حاسّة اللّمس، ولم يعُدْ يعرفُ، تقريباً، كيف يكتب أو يقرأ، وصار يعبّر عن نفسه بصورةٍ أسوأ، إذ يخلط بين الكلمات على الدّوام، ويعجزُ أكثر فأكثر عن العثور عليها. أمّا في الموسيقى، فإنْ كان قد ظلّ قادراً على الغناء أو العزف من الذاكرة، أو على تمييز ما يُسمعونه إيّاه من أعمالٍ موسيقيّة، إلّا إنّه لم يعد بمقدوره أن يقرأ نوطة موسيقيّة ولا أن يفكّ شفرتها على البيانو. ناهيك عن أنّ النّوم لم يعد يزوره.

تقنية رقم 3: أنْ يفرض على نفسه تعداداً ما؛ أنْ يتذكّر مثلا كلّ الأسِرّة التي نام فيها منذ ولادته. إنّها مهمّة كبيرة، وقد تستغرق وقتاً طويلاً. ففي كلّ مرة يجد أسرّةً جديدةً في ذاكرته، وهذا يأخذ وقتا كثيراً إلى درجة أنّه يغدو مُملّاً -ويمكنه الاعتمادُ على هذا الملل كعاملٍ مساعدٍ على النوّم.

اعتراض: إنّ هذا الملل يمكن أنْ يُبقي رافيل في حالة تيقّظ، ويدفعه لأن يطرح أسئلة مُباغتة، تُبقيه متأهّباً. كما يحدث أيضاً أن يُسيءَ التفاوض، كأنْ يتملّكه أحياناً خمولٌ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ينبغي أنْ يستسلم له، لكنّه على العكس تماماً لا يفعل. إنّ رغبته في النوم من القوّة بحيث تجعله يترقّب بقلَقٍ حلولَ النّعاس، حتّى إذا أحسّ بأنّه قريب. وهذا الانتباه المَرضيّ يمنع مجيء النّوم في اللحظة التي يكون فيها على وشك الوصول. وعندها، ينبغي بدء كلّ شيء من جديد. ذلك أنّ المرء لا يستطيع أن يفعل كلّ شيء في الآن ذاته، أليس كذلك؟ يَحدُث الأمر ذاته دوماً، إذ لا يمكننا النّوم ونحن نراقبُ النعاس.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

9

على أيّة حال، لقد كانت صحّته هشّةً على الدوام، فمِنَ التهاب الصّفاق إلى السّل ومن الأنفلونزا الإسبانيّة إلى التهاب القصبات الهوائيّة المزمن، لم يتمتّعْ جسدُه المُتعَب بالقوّةِ في يوم من الأيّام، حتّى وإن كان مُنتصباً مثل الألف، مشدوداً في بذلاته المضبوطةِ القياس تماماً. ولا كانت روحه قويّة كذلك؛ كان غارقاً في الحُزن والسّأم وإنْ حرص على ألّا يظهرهما، وعاجزاً أبداً عن أنْ ينسى نفسه في النّوم، الذي حُرّم عليه أن يزوره. ولكنّ الأمر مختلفٌ الآن. فهو لم يَعُدْ يستطيع العثور على مشطِه الموضوع أمامه على منضدة الزّينة، ولم يعد يعرف كيف يعقدُ ربطةَ عنقه وحدَه، ولا يفلح في تزرير كُمّيه من دون مساعدة.

كانوا يحاولون التّرويح عنه، فيصطحبونه، ما أمكنهم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

ذلك، إلى حفلاتٍ موسيقيّة، لكنّه كان يبقى مُتلاشياً في أريكته، ساكناً وهادئاً، وكأنّه لم يعدْ هناك، كأنّه ميْتٌ مُسبقاً. حين عاد توسكانيني إلى باريس، نجحوا في إقناع راڤيل بالذّهاب لسماعه يقودُ الأوركسترا في أداءِ أحدِ أعماله. ذهب على مَضضٍ، وبدا متأثّراً حين هلّلوا للأوركسترا وقائدها، ولكنّه، قابعاً في مقصورته، رفض الذّهاب لتهنئة توسكانيني. وحين تعجّبوا وتأسّفوا لِعدم ذهابه ليعبّر عن سروره، فيمحو بذلك الخلافَ القديم حول البوليرو، أجاب راڤيل: كلّا، فهو لم يرّدَّ قطّ على رسالتي. وعند الخروج من المسرح، اقترب منه زوجان، ذكّره وجهاهُما على نحو غامض بشيء ما ولكن ما هو؟ أستاذنا العزيز، قالا، هل تتذكّر حين عزفتَ مقطوعةَ «دافني»[1] على بيانو منزلنا، قبل سنوات قليلة؟ نعم، نعم، قال راڤيل بصوتٍ فقَد جرْسه، وبلا تصادٍ مع فِكْره، وحتّى دون أنْ يعرف مَن هما.

ولكن على الرغم من أنّه لم يعد يعرف كثيراً من الناس، فإنّه كان يعي كلّ شيء. كان يرى جيّداً أن حركاتِه تُخطئ

(1) *Daphnis*.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

أهدافها، أنّه يمسك بالسّكين من نصْلها، ويقرّبُ عَقِب السيجارة المشتعل إلى شفتيْه، ثمّ يُصحّح نفسَه سريعاً، في كلّ مرة، هامساً لنفسه: لا، ليس هكذا. كما كان يرى جيّداً أنّ الأظافرَ لا تُقلَّم بهذه الطريقة، وأنّ النّظاراتِ لا توضع بهذا الاتّجاه، وأنّه حين يرتديها بهذه الصّورة محاولاً قراءة جريدة «لوبوبولير»، فإنّ عضلاتِ عينيْه لا تُمكّنه حتّى من متابعة الأسطُر. كان يلاحظ كلّ ذلك بوضوح: السّقوطَ الذي هو فيه فاعلٌ ومتفرّجٌ يقظٌ في الوقت نفسه، مدفوناً حيّاً في جسده الذي لم يعد يستجيبُ لذهنه، ومتأمّلاً شخصاً غريباً يحيا فيه.

لكنّ ما يحدث لي أمرٌ مأساوي، يقول لمارغريت. فتجيبهُ دوماً: الصّبر، سوف تجتاز ذلك، ثمّ انظر إلى فيردي، لقد اضطرّ إلى انتظار أن يبلغَ الثمانين عاماً لكي يؤلّف «فالستاف»[1]. وحين يظلّ على حُزنه، تُذكّره بأنّه حتّى إذا لم يَعُد بوسعه إنتاجُ أيّ شيء، فإنّ أعماله حاضرةٌ على كلّ حال. لقد أنجز أثَره، تُكرّر على مسامعه، وهو كثيرٌ ورائع. ولكن كيف يمكنُكِ قولُ هذا؟ يقاطِعُها

(1) *Falstaff*.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

يائساً، إنّني لم أكتب شيئاً، ولم أُخلّفْ شيئاً، ولم أقُلْ شيئاً ممّا أردتُ قولَه.

هو وحدَه في بيْته في مونفور، بلا أوهام، لقد كان وحيداً فيه دائماً، ولكنْ متشبّثاً بالموسيقى. قد ضاق أخيراً ذرعاً بحياته العديمةِ الفائدة، غاضباً، بلا جدوى، من كوْنِه لم يَعد ينفع بشيء، ومن كوْنه محبوساً داخل ذاته. وبعد أن أدْرك أنّ الأمر قد انتهى، حاول أن ينظّم عزلته. صار يعودُ كلّ يوم، بعد أن يتجوّل مشياً في غابة رامبويّيه التي لم تمنعْه حالتُه قطّ من معرفتها عن ظهر قلب، ليمضيَ ساعاتٍ بالقرب من الهاتف منتظراً، على أمل تلقّي مكالمةٍ من إدوار الذي تجبره أعمالُه في أغلب الأوقات على البقاء بعيداً عنه، ومواصلاً التدخين بلا توقّف على الرغم من أنّه ممنوعٌ من ذلك، ثمّ يقوم ليُفرِغَ مِنفضة السّجائر، وليست المنفضة المليئة برماد السجائر بأقلّ حزناً من السرير الذي لم يُرتّب. ولكنْ عند الخامسةِ من مساء كلّ يوم أيضاً، كان يتلقّى زيارةً من جاك دو زُغيب. ما إنْ يقرعَ زغيب الجرَس، حتّى يهرع راڤيل نحو الباب مُحاولاً فتحه. وبما أنّه لم يعد شيء في جسده يعمل، فقدْ أخذتْ أصابعُه الرخوةُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

تذهب بالمزلاج، بحركاتٍ متقطّعة، في كلّ اتّجاه، وبالقفل في الاتّجاه الخطأ، إلى أن يستسلِمَ ويقنعَ بمناداة مدبّرة المنزل. كان زغيب يسمع من خلال الباب لعناتِ راڤيل التي تزداد سخطاً والتي تردّ عليها صيحاتُ السيّدةِ ريفلو الهائجةُ، إلى أنْ تنفتح أخيراً درفة الباب.

يأخذُ زغيب راڤيل من ذراعه، ويعبران إلى الصّالة الحمراء والرماديّة. يتّخذ مكاناً له على الأريكة فيما يتمدّد راڤيل في الكرسيّ الواسع بالقرب من النافذة. ويدور الحوارُ ذاته كلّ يوم. كيف حالك؟ يسأل زغيب. سيّئة، يقول راڤيل بصوتٍ خافت، الحال على ما هي عليه دوماً. وحين يسأله الآخر عن نومه، يجيبه راڤيل بإيماءةٍ من رأسه تفيد بأنّه لم ينَم. والشهيّة؟ يتابع زغيب. الشهيّة؟ نعم، إلى حدٍّ ما، يجيب بفتور. وهل عَملتَ قليلاً؟ يهزّ راڤيل رأسه مرّة أخرى، وفجأةً تغيم عيْناه بالدّمع. لِمَ يحدثُ هذا لي؟ لا يجيب زغيب. وبعد لحظاتٍ من الصّمت: لكنّني كتبتُ أشياء لا بأس بها. أليس كذلك؟ زغيب لا يجيب. يبقى زُغيب برفقة راڤيل حتّى الثامنة وفي اليوم التالي، عند الخامسة مساءً، يعود ليطرحَ الأسئلة ذاتها. كانت النهاراتُ

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

كلّها تمرّ على هذا النحو إلى أن يحلّ اللّيلُ فيُثيرُ سؤال النّوم.

تقنيّة رقم 4: بروميد البوتاسيوم، لودانوم، فيرونال، نيمبوتال، بروميناي، وسونيريل[1] . ومهدّئاتٌ أخرى.

اعتراض: بعد أنْ كانت الأدوية المنوّمة قد خدمته كثيراً، لم تعد تساعده إلّا قليلاً، فمفعولها لم يعد كبيراً، في الحقيقة. ومع ذلك، كان راڤيل ينتهي أخيراً بالسّقوط في النّوم مع خيوط النّهار الأولى. لكنّ هذه الهدنة لم تكن سوى نوم سيّئ، تشوّشه أحلامٌ عدائيّة، لا تترك له أيّ فرصةٍ للراحة، إذ يكون عليه خلالها أن يواجه وحوشاً أو، ما هو أسوأ بعدُ، أن يهرب منها؛ فيفزّ مستيقظاً فجأةً في اللّحظة الأسوأ من تلك المعارك، خائراً، ومنهكاً، في كلّ مرّة أكثرَ من عشيّة اليوم السّابق، لا بل بمزاجٍ أكثر كدراً، أو بلا مزاجٍ البتّة!

أخيراً، وبعدَ أنْ استغرق الأمرُ زمناً طويلاً، قُدِّم في حضوره عرضٌ لعمله «كونشرتو لِليْدِ اليُسرى» بصيغته الأصليّة، بعد أنْ خلّصه جاك فيفرييه أخيراً من زخرفات

(1) أسماء أدوية مسكّنة وعقاقير مهدّئة ومنوّمة.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فيتغنشتاين. أثناء الحفل، مال راڤيل مرّةً أخرى على جارته لكي يسألها هل أنّ ما يستمعون إليه هو حقّاً أحد أعماله. هذه المرّة كان لديه ظرفٌ مُخفِّف، إذ لم يكن سبق له أنْ سمعه بهذه الصّيغة. لكنّه حين حضر بعدها بثلاثة أشهر حفلاً مُخصّصاً لأعماله المكتوبة للبيانو بدا أنّه لم ينتبِه إلى أنّ التّصفيق في نهاية الحفل كان له. لا بدّ أنّه فكّر أنّ المعنيّ بذلك التصفيق الحادّ هو زميله الإيطاليّ الذي يجلس إلى جانبه، لأنّ راڤيل التفت إليه، بلباقة، بابتسامةٍ آليّة، ونظرةٍ جوفاءَ تثير الخوف. ثمّ اصطحبوه إلى العشاء، فتبِع حركَتهم من دون أن يقول شيئاً: كان شبحاً أنيقَ الهندام كعهده، إلّا أنّ مدام ريفلو، تحسبّاً لأيّ طارئ، شكّت في ياقة سُترته بطاقةً تحمل عنوان بيته.

بالطبْع، كان لا بدّ من فعل شيء. فلم تنقطع اجتماعاتُ المقرّبين منه للتّداول في الأمر، وعبثاً جابت إيدا روبنشتاين سويسرا وألمانيا وإنجلترا كي تجمع آراء المختصّين، الذين أقرّوا بِحيْرتهم أمامَ حالته. وحين استشارت في باريس رائِدَي جراحة أعصاب الدّماغ، عارض أحدُهم فكرة الجِراحة، أمّا الآخر فقد أعلن باختصار أنّه ما كان لِيُقدَم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

على أيّة محاولة لو تعلّق الأمر بأيٍّ كان، وما كان ليفعل شيئاً سوى تَرْكِه على حاله ولو كان في ذلك ضياعُه للأبد. ولكنّه راڤيل! وفي المرحلة التي وصل إليها، يجدرُ أن نحاول القيام بشيء. يُمكِنُنا افتراضُ أنّ نجاح العمليّة الجراحيّة قد يعيد له قدراته، وقد يمنحه سنواتٍ من الإبداع الجديد. وعلى الرغم من نتائج الفحوص، التي ظلّت محطّ شكّ، فإنّ فرضية وجود وَرمٍ لا تزال قائمة، وعليه، ينبغي القبولُ بإجراء الجراحة. كان كلوفيس فانسان جرّاح أعصابٍ ذائع الصّيت، ولا يمكن إلّا الوثوق به. فأخذوا برأيه، وحدّدوا موعداً لِلقائه بعد يومين.

وبما أنّه كان ينبغي حلق رأس راڤيل قبل العملية، فقد سعى إدوار والآخرون لطمأنته، لأنّه حين رأى شعره يتساقط، توسّل إليهم أن يعيدوه إلى البيت. فحاولوا إقناعه بأنّ الأمر لا يتعدّى إجراء صورةٍ شعاعيّةٍ أخرى، وبعض الفحوص المتقدّمة التي ينبغي أن يخضع لها، غير أنّ راڤيل لم يُصدّق شيئاً من ذلك. كلّا -قال بهدوء- أعلمُ جيّداً أنهم سيقطعون رأسي. وحين غطّوا رأسه بقماشٍ أبيض، بدا أنّه قد تقبّل الأمر، وكان هو أوّل من ابتسم

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

للشّبَه غير المتوقع بيْنه وبين لورانس العرب.

بأيدٍ عارية، قصّوا بمنشارٍ صندوقَ جُمْجمته كي يعزلوا الجزء الأماميّ الأيْمن منها، الذي سحبوه، ثمّ فتحوا الأمّ الجافية[1]، بالعرض، كي يروْا كيف تجري الأمور في الدّاخل، فوجدوا أنّ الجزء الأيسر من الدّماغ منخسفٌ قليلاً لكنّه طبيعيٌّ على الأرجح، من دون وجود أيّ شكل خاصّ من الارتخاء، وإنْ كانت تلافيفُ الدّماغ، التي لا تُعاني من ضمور شديدٍ هي الأخرى، متباعدةً عن بعضها البعض بفعل الاستسقاء[2]. وإذْ لم يجدوا أيَّ ورم، قاموا بِبَزْل القَرن البُطينيّ لاستخراج بعض السّائل، الذي لا يظهر إلّا بالضّغط على المنطقة المعنيّة. فحقنُوها بالماء عدّة مرّاتٍ على أمل أنْ تتمدّد. كان الدماغ ينتفخُ لكنّ الانتفاخ سرعان ما يزول. وبدا أنّ الضّمور الدماغيّ نهائيّ. باختصار، لم يحدُث أيُّ تقدّم. فاستسلموا، وأعادوا غلق

(1) إحدى السّحايا الثلاث، وهي أبعدها عن مادةّ الدماغ والنخاع وألصقها بصندوق الجمجمة، تتألف من غشاء ليفيّ سطحيّ.

(2) ينجم مرض الاستسقاء الدماغيّ عن تجمع السائل الشوكيّ في التجاويف الدماغيّة بكميات أكبر من الحجم الطبيعيّ ممّا يؤدي الى ارتفاع ضغط الدماغ وبالتالي انضغاط الخلايا العصبيّة وتورّمها وموتها في النهاية.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

فُتحة الحَقْن ثُمّ، تاركين الأمّ الجافية مفتوحة، ردّوا الجبهة الأماميّة إلى وضعها، وخاطوها بخيْطٍ بُنّي.

بعد العمليّة، وحين استعاد راڤيل وعيه لِلَحظةٍ، اعتقدوا أنّه تجاوز الخطر. تناول بعض الطعام، طلبَ حضور إدوار، ثمّ طلب أنْ يرى سيّدةً بعيْنها. فسألوه أيّة سيّدة؟ واقترحوا عليه أسماءً يصعبُ عليه لفظها. إيدا روبنشتاين؟ فأشار أنْ لا، بإيماءةٍ من يده نحو الأرض. هيلين جورادن مورهانج ؟ لا. مارغريت لونغ؟ كلّا، أشار بالإيماءة ذاتها. أَخفَضَ، قال أخيراً، أخفَضَ. فهموا المقصود في النهاية، واستدعوا السّيدة ريفلو. غطّ في النوم ثانيةً، وتوفّي بعدها بعشرة أيّام، ألبسوا جسدَه ثوباً أسود، بصُدْرةٍ بيضاء، وياقةٍ جامدةٍ مقصوصةِ الزوايا، وربطةِ عنق «الفراشة» بيْضاء اللون، وقفازَين شفّافَين. لم يخلِّف وراءه وصيّةً، ولا صورةً فيلميّة ولا أيّ تسجيلٍ بصوْته.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

Twitter: @ketab_n

www.kutub-pdf.net

نبذة عن المؤلّف:

يُعتبر جان إشنوز من أكبر مجدّدي الكتابة الروائيّة في فرنسا في العقود الأخيرة. ولد عام 1947 في مدينة أورانج الفرنسيّة، لأبٍ طبيبٍ نفسيّ وأمّ رسّامة. ولدى إنهائه الدراسة الثانويّة، بدأ بدراسة الكيمياء، ثمّ انعطف إلى علم الاجتماع، فالموسيقى، ثمّ عقد العزم على ممارسة الكتابة الأدبيّة. نشر حتّى الآن ثماني عشرة رواية، وكتب للسّينما عدداً من السيناريوهات. فاز في 1983 بجائزة مديسيس عن روايته «شيروكي»، وفي 1999 بجائزة غونكور عن روايته «أنا راحل». ينشر له مشروع «كلمة» ترجمة لثلاثة كتبٍ صاغ فيها بلغة روائية سيَرَ ثلاثة من أعلام العصر الحديث وهم: المؤلّف الموسيقيّ الفرنسيّ موريس راڤيل «راڤيل»، والعدّاء التشيكيّ إميل زاتوبيك «عدْو»، والمخترع ومهندس الكهرباء الصربيّ-الأمريكيّ نيكولا تسْلا «بروق».

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

نبذة عن المترجم:

وليد السويركي شاعر ومترجم أردني من أصل فلسطيني، مواليد 1967، عمل مدرساً للأدب الفرنسي في جامعة اليرموك (الأردن) من 1996 إلى 2008. صدر له عدد من الترجمات الفكرية والأدبية منها: «اللانظام العالميّ الجديد»، لتزفيتان تودوروف، 2005، و«بعيداً عن البشر»، لباسكال ديسان، 2007، و«طردت اسمك من بالي»، لأومبرتو أكابال، 2010.

وصدر له ترجمة كتاب «أساتذة اليأس»، لنانسي هيوستن، مشروع «كلمة»-أبوظبي، 2012.

Twitter: @ketab_n
www.kutub-pdf.net

راڤيل

كان يدرك جيّداً ما الذي أنجزه: لا شكلَ له، بالمعنى الدّقيق للكلمة، لا تطوّرَ في اللّحن، لا تنغيمَ، بل إيقاعٌ وتوزيعٌ فقط. باختصار، هو شيءٌ يدمّرُ ذاته بذاته، نوتةٌ بدون موسيقى، صنيعُ أوركستراليٍّ بلا مادّة، انتحارٌ، السلاح الوحيد المستخدم فيه هو مدُّ الصوت، جملةٌ مكرورة، شيءٌ بلا أمل ولا يمكننا أن ننتظرَ منه شيئاً... وبعدما أنهى العمل ذات يوم، وعند مروره بالقرب من مصنع فيزينيه مع شقيقه، قال له: هل ترى، هذا هو مصنع «البوليرو».

لكنّ الأمور لم تجرِ على النّحو المنتظر. فحين قُدّمت المقطوعة في رقصة للمرّة الأولى، كانت مربكةً قليلاً، لكنّ الأمر نجح. أمّا النجاح السّاحق، فقد جاء لاحقاً في الحفلات الموسيقيّة. كان نجاحاً استثنائيّاً، فالشّيء الذي لا أملَ منه حقّق انتصاراً أذهل الجميع، بدءاً من مؤلّفه ذاته.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال و ناشئة

كلمة KALIMA

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

9 789948 136620

www.kutub-pdf.net